TANSAR

KITAB TANSAR



جماعة الأزهر للتأليف والترجمة والنشر

كتاب تنسر

أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام

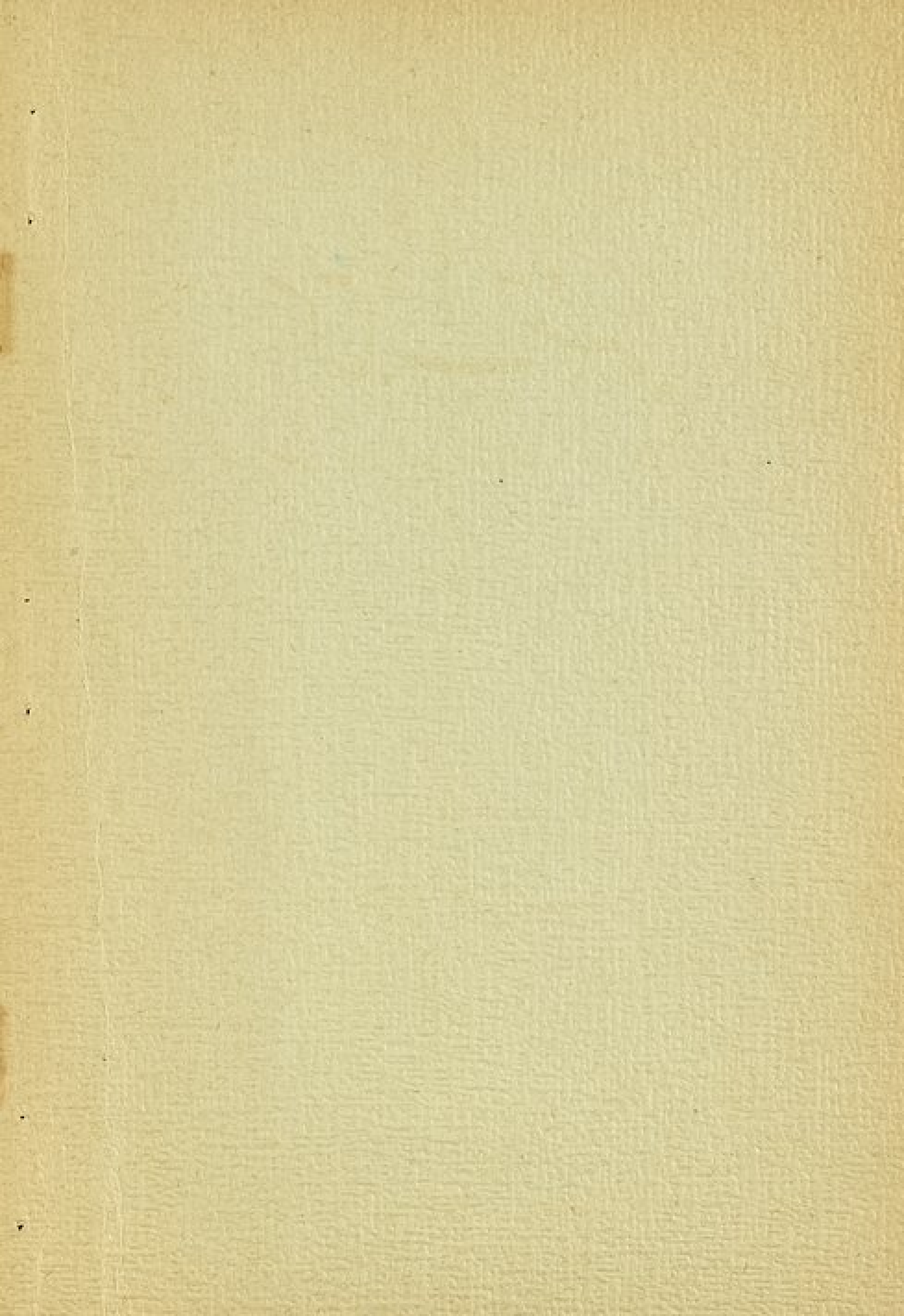
نقله للغة العربية

يحيى الخشاب

عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

١٩٥٤



جماعة الأزهر للنشر والتأليف

Tansar

كتاب تنسر

أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام

Kitāb Tansar

نقله للغة العربية

يحيى الخشاب
عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

(١)

هذا الكتاب نقله ابن المقفع من البهلوية إلى اللغة العربية فى القرن الثانى الهجرى . ونقل عنه ، أو عن النص البهلوى ، المسعودى فى «مروج الذهب» و« التنبيه والإشراف » ، وابن مسكويه فى «تجارب الأمم» ، والبيرونى فى « تحقيق ما للهند من مقولة » وغيرهم . وفى القرن السادس الهجرى كان ابن اسفنديار يكتب تاريخ طبرستان ، فرأى وهو فى خوارزم كتاباً يحوى بعض الرسائل ، منها « رسالة تنسر » التى عربها ابن المقفع من البهلوية ورآها « كالفلك المشحون من فنون الحكمة » ، فنقلها إلى اللغة الفارسية ، وافتتح بها كتابه عن تاريخ طبرستان .

والنص البهلوى مفقود ، وكذلك الترجمة العربية لابن المقفع . ولم يبق غير الترجمة الفارسية التى قام بها ابن اسفنديار . وعن هذه الترجمة الفارسية نعيد نقلها إلى العربية ، محتفظين بقدر الإمكان بالألفاظ العربية ، والاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث والأمثال ، التى وردت فى النص الفارسى لابن اسفنديار ، والتى نرجح انه هو أيضاً احتفظ بها وهو ينقل عن الترجمة العربية لابن المقفع .

وفى القرن التاسع عشر نشر النص الفارسى المستشرق دارمستتر ، وترجمه للفرنسية مع مقدمة وتعليقات علمية هامة . وفى ١٩٣٢ أعاد مجتبى مينوى نشر نص الكتاب ، بعد أن عثر على نسخة أتم وأقدم بنصف قرن من تاريخ أول المخطوطين اللذين استند إليهما دارمستتر. وقد أفاد مينوى من شروح دارمستتر القيمة ،وزاد عليها الكثير المستمد من المراجع القديمة الأصيلة . وعن نسخة مينوى ، التى يتخذها الكتاب المحدثون أساساً للبحث والدراسة ، نقلنا النص إلى اللغة العربية كما نقلنا الكثير من شروحه وشروح دارمستتر ، وأضفنا إليها القليل .

(٢)

وصاحب هذا الكتاب رجل اسمه تنسر . قيل : انه كان من كبار رجال الدين أيام اردشير (٢١٢ — ٢٤١) ، وقيل : بل كان أيام أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩) . ويقول بهرام خورزاد ، الذى نقل عنه ابن المقفع مقدمته : إنه سمى تنسر لأن الشعر قد نما بغزارة فوق جسده حتى كان جسده كله مثل رأسه[١] .

وجاء فى دينكرد[٢] أن الملك اردشير كلف تنسر «هربدان هربد» — رئيس سدنة بيوت النار — بجمع متون الاوستا ، كتاب الإيرانيين الزردشتيين ، وبأن يعيد سطره ؛ ولما أتم هذا العمل أطلق على تنسر لقب « يوريوتكيش » أى حافظ دين الأقدمين .

---

(١) انظر شرح الكلمة ص ٧ هامش ١ . تن = جسد ، سر = رأس .

(٢) جمع فى القرن التاسع الميلادى.

ويذكر المؤرخون هذا الخبر ، كالطبرى والمسعودى والبيرونى .

وكلمة تنسر بالحروف العربية تكتب أحياناً مصحفة : تنشر ، بنشر ، بيشر وهكذا . وأما بالحروف البهلوية فلاتتعدى أن تكون تنسر أو دوسر أو توسر . وذلك لأن رسم النون والواو واحد فى البهلوية ، ولكنه مختلف فى العربية .

ويرى كريستنسن أن ابن المقفع لو قرأ الكلمة : توسر ، لوردت كذلك فى ترجمة ابن اسفنديار .

وقد ذكرها المسعودى بالواو والدال ، فقال : دوسر . وكذلك ذكرها البيرونى بالواو ، فقال : توسر . وهذا يرجح انهما لم ينقلا ما ذكراه من الكتاب عن الترجمة العربية لابن المقفع ؛ ولكنهما نقلاعن النص البهلوى . ورجح مينوى ، لذلك ، أن هذا النص كان موجوداً حتى القرن الخامس الهجرى (٤٢٢) [١] .

وجاء فى النسخة التى اعتمد عليها مينوى : « تنسر هرابذه » ، فاذا كانت النسخة صحيحة ، فمن المحتمل ، عند مينوى [٢] ، أن يكون لفظ تنسر لقباً أو منصباً من قبيل الرئيس أو المقدم . ونرى هذا الاحتمال بعيداً ، لأن الكلمة لم ترد بهذا المعنى فى نص آخر فيما نعرف . والظاهر أن كلمة هربد قد سقطت من بين الكلمتين ، وأن الأصل الصحيح كان تنسر هربد هرابذه .

---

(١) انظر دار مستتر ١٨٦ — ١٨٧ . وانظر مينوى ص يه .

(٢) ص يو .

وقد اختلف الكتاب فى الزمن الذى ألف فيه الكتاب . هل كان أيام أردشير ، أو بعد ذلك بأكثر من ثلاثة قرون ، أى أيام كسرى أنو شروان .

رأى كريستنسن :

ويرى كريستنسن فى كتابه **L'Iran sous les Sassanides** أن الكتاب يرجع إلى أيام كسرى أنو شروان لا إلى زمن أردشير . ويؤيد رأيه بهذه الأدلة :

(١) ان أردشير قد خفف العقوبات الخاصة بالجرائم الدينية . فقد كانوا قبل ذلك يحكمون بالموت فوراً على من يخرج على الدين ، فأمر أردشير بأخذ المجرم ومحاولة هداه سنة كاملة ، فان لم يهتد يقتل .

والحقيقة ان القوانين الصارمة ، التى تفرض الموت على جريمة الارتداد عن الدين ، لم توجد قبل أن تصير الديانة الزردشتية ديناً رسمياً للدولة على يد أردشير الأول . وأما تخفيف العقوبة ، فعلى عكس ذلك ، جاء فى وقت أحدث ، حين بدأت الآراء التى هى الأكثر إنسانية تسود ، وحين حاولوا تسويغ هذه التعديلات فنسبوها إلى مؤسس الدولة المشهور . ومن الممكن أن نقول هذا عن تخفيف عقوبات الجرائم الخاصة بالاعتداء على الملك (الدولة) ، أو الغير ، المذكورة فى الكتاب . ثم إن كسرى أنو شروان قد عرف بالتساهل فى أمور الدين ، وبالاتصاف بخلال إنسانية .

(٢) يؤخذ من الكتاب أن أردشير لا يريد أن يختار خلفه ، لأن هذا قد يرغب فى موته ، ومن أجل ذلك وضع نظاماً جديداً لوراثة العرش . وهو

ألا يكتب الملك فى وصيته المختومة والموجهة إلى كبير الموابذة واصبهبذ إيران (القائد العام) وكبير الكتاب إلا بعض النصائح والإرشادات ، وبعد موته يختار هؤلاء الثلاثة خلفه من بين أمراء البيت المالك . فاذا لم يتفقوا فوض الاختيار إلى كبير الموابذة وحده . ولكن أردشير ينص صراحة على أنه لا يريد أن يجعل طريقته هذه سنة لمن بعده من الملوك ؛ ولكنه ترك لهم العمل حسب الأحوال . وقد تتغير القاعدة إن وجد ما هو أصلح منها . ويلاحظ أن مثل هذا النظام مستبعد من رجل قوى كأردشير . ثم اننا نعلم من الطبرى (الذى يتبع التقويم الرسمى للساسانيين) أن أردشير ، وسابور الأول ، والثانى ، قد اختار كل منهم خليفته بنفسه . والحق أنه فى الفترة بين حكمى أردشير الثانى ، وقباد الأول ، ترك اختيار الملك بوجه عام للعظماء . ومن الممكن أن تتوافق الطريقة التى أشار إليها تنسر مع هذه الفترة . ثم إن ما جاء على لسان أردشير من أن هذه القاعدة ليست سنة ، وأنه فى أزمنة أخرى قد توجد قواعد أصلح منها ، يبين ان كتاب تنسر قد ألف فى زمن كانت ذكرى الطريقة المنسوبة لأردشير لا تزال ماثلة فيه ، ولكنها كانت ملغاة ؛ أى فى الوقت الذى كان للملوك الحق ، من جديد ، فى تعيين من يخلفهم ، أى فى المدة بين حكمى قباد وهرمزد الرابع .

(٣) ينسب الكتاب لأردشير قوله : لا يجوز لأحد من غير أسرتنا أن يحمل لقب ملك (شاه) إلا أصحاب ثغور آلان ، وناحية المغرب ، وخوارزم ، وكابل . ولا شك أن المقصود بصاحب ثغر آلان أحد الاصبهبذين الأربعة ، الذين عينهم أنوشروان ؛ ويقال إنه كان من حقه مزية الجلوس

على عرش من ذهب ، وان وظيفته كانت ، على سبيل الاستثناء ، وراثية فى خلفائه الذين كانوا يسمون : « ملوك السرير[1] » .

(٤) وأخيراً فان الملحوظات الجغرافية تتيح تحديداً أدق لتاريخ كتاب تنسر ؛ فقد أشير فيه إلى الترك ، وذكر فيه أن حدود الامبراطورية الإيرانية تحسب من نهر بلخ إلى حدود آذربيجان وأرمنية وفارس والفرات والأراضى العربية إلى عمان ومكران ، ومن هناك حتى كابل وطخارستان . فالكتاب إذاً أنشىء بعد فتوح أنو شروان فى الشرق ، بعد قضائه على الهياطلة ؛ ولكن قبل استيلائه على اليمن ، أى بين سنتى ٥٥٧ و ٥٧٠ .

ويرى ماركارت هذا الرأى ، وإن أيده بطريقة أخرى . فعنده أن تنسر عندما يذكر قابوس ملك كرمان ، بدلا من وخش الذى تذكره المصادر التاريخية ، يقصد كيوس أخا أنوشروان ، الذى اتخذه وخش مثالا له[2] .

ويذهب آربرى إلى الأخذ برأى كريستنسن ، وبالفترة التى حددها لتأليف الكتاب[3] . ولا شك أن كريستنسن عالم متمكن فى تاريخ إيران وحضارتها . ولكنا لا نوافقه فيما ذهب إليه من رأى فى هذا البحث . وعندنا أن تخفيف العقوبة أو طريقتها بالنسبة لمن يرتد عن

---

(١) نهاية الأرب. فى مجلة الجمعية الاسيوية Iras سنة ١٩٠٠ ص ٢٢٧ .

(٢) انظر كريستنسن ٦٣ — ٦٦ الطبعة الثانية .

(٣) Legacy of Persia مقال فى : Persian Literature ص ٢٠١ لندن ١٩٥٣

الدين لا يدل على أن صاحب هذا الرأى هو أنو شروان دون أردشير. لأن أردشير لم يخلق فكرة التمسك بالدين الزردشتى وجعله عماداً من عمد الدولة ، ولم يتخذ هذا الرأى سياسة جديدة . إنما كان التفكير فى دين زردشت ، وفى جمع الاوستا ، وفى إعادة مجد هذا الدين . كان هذا كله أيام الأشكانيين ؛ وكان للملك بلاش فضل فيه . وقد بدىء بجمع الاوستا فعلا فى ذلك الوقت . ولا شك أن العناية إلى هذا الحد بشؤون الدين قد استتبعت التشدد فى المحافظة عليه ، وفى معاقبة المرتدين عنه عقاباً صارماً ؛ فلما وحدت الدولة سياسياً أيام أردشير ، وأصبح لها دين واحد هو دين زردشت ، رأى الملك ، ضمن ما رأى من إصلاح أمور الدولة ، أن يلتزم فاعدة جديدة هى : محاولة هدى من لا يدخل فى دين الدولة ، وذلك حتى يكسب أصدقاء جدداً من بين خصومه الذين كان يتلمس استرضاءهم قبل قتالهم . وليس من اللازم أن تكون هذه السياسة سياســـة أنو شروان . ويؤيد رأينا فى هذا أن الكتاب لو كان قد وضع أيام أنو شروان ، لأشار بمناسبة التحدث عن جرائم الدين إلى المزدكية ، وهى أهم حدث فى تاريخ إيران قبيل تولاية أنو شروان. ولم تأت فى الكتاب إشارة واحدة إلى مزدك .

وأما الحجة الثانية الخاصة بولاية العهد ، وبأن أردشير لا يريد أن يختار ولى عهده ، حتى لا يفكر فى موته كى ينعم بالملك من بعده ، فهذا تحميل للنص بأكثر مما يحتمل. لأن تنسر أراد أن يرد على جشنسف شاه ، الذى كان يأخذ على أردشير بعض المآخذ ، ومنها : عدم تليين ولى العهد . والواقع أن تنسر قد نص على أن هذا النظام غير ملزم ، وأن

الملك أو من بعده قد يغيره . وقد عين أردشير ولى عهده ، ولم يرد فى نص تنسر ما يفيد التزامه ترك الأمر للشورى بالطريقة المنصوص عليها . ثم إن استبعاد هذا الرأى بالنسبة لأردشير ، لأنه ملك قوى ، يسرى من باب أولى على أنو شروان ، الذى لم يكن أقل قوة من مؤسس الدولة . ومن باب أولى أيضاً كان على أنو شروان أن يعين خلفه ، كى يضمن الاستقرار من بعده بعد الهزة العنيفة ، التى تعرضت لها إيران أيام أبيه قباد .

وأما عن لقب ملك (شاه) وأصحاب الثغور ، الذين لهم حق التمتع به وحدهم ، فلا يفيـــد عندنا الدليل على أن الكتاب كان أيام أنو شروان . ولو أن كربستنسن أمعن النظر فى النص كله لعلم أنه ينص على استثناء من يدين بالملك للشاهنشاه . فان من يفعل ذلك يبقى متمتعاً بلقب ملك . وهذا كان مجاله أيام العمل على توحيد الدولة ، وجعل أردشير ملكاً على الاقليم كله ، والقضاء على فكرة تمزيق الدولة إلى طوائف ، وكل هذا بطبيعة الحال كان إبان تأسيس الدولة أى أيام أردشير كما يقول الكتاب نفسه .

وأما الحديث عن الاصبهبذين الأربعة ، الذين عينهم أنوشروان ، فقد بنى كريستنسن حكمه على أن هذا النظام ابتدعه أنو شروان ابتداعاً . ونحن نشك فى ذلك . وعندنا أنه كان إحياءً للنظام القديم ، الذى كان يعمل به أردشير ، والذى ضعف فى بعض الأحيان ، ومحى فى البعض الآخر ، بعد الأحداث التى مرت بايران منذ سابور الأول حتى أنو شروان .

وأما الحجة الرابعة الخاصة بالحدود فلا نراها . ولم تكن إيران أيام أردشير أقل اتساعاً منها أيام أنو شروان . وقد حاول كريستنسن

أن يدفع عما يذهب إليه من رأى فأخرج فتح اليمن من فتوح أنوشروان، وحدد تاريخاً للكتاب قبل فتح اليمن .

والواقع أن الكتاب وضع رداً من تنسر على أسئلة معينة أثارها أحد ملوك الطوائف منتقداً سياسة أردشير . وأن تنسر يحاول إقناع هذا الملك ، لأنه كان فى خدمة أبيه ، بأن يخضع لأردشير ،وأن يسرع إليه ويبايعه ، كى يحافظ على عرشه ولقبه . والكتاب يؤدى إلى هذه الفكرة بوجه عام . وجاء فى النص إشارات قليلة إلى أنوشروان؛ وهذه نرى أن ننسبها إلى النساخ،الذين زادوا على المتن بعض ما عن لهم من زيادة . وهى لاتؤدى إلى أن نغفل فكرة الكتاب كله،والنص الصريح على أنه بقلم تنسر هربذ هرابذة أردشير ، وأنه يتحدث عما بين أردشير وملك طبرستان . والنص العربى الذى كتبه ابن المقفع ، أو النص الفارسى الذى كتبه ابن اسفنديار نقلا عن ابن المقفع ، به آيات من القرآن والأحاديث ؛ بل به حكاية كاملة من پنج تنترا،الذى نقلت عنه كليلة ودمنة . ومن هذا القبيل الإشارات القليلة إلى أنو شروان فى النص . وقد تعود الباحثون على وجود الزيادات المماثلة فى المخطوطات . لهذا نرى أن الكتاب لتنسر الذى تشير إليه المراجع البهلوية والعربية ، مثل دينكرد ، والمسعودى، والبيرونى، والذى كان كبير سدنة بيوت النار أيام أردشير .

(٤)

موضوع الكتاب

والكتاب رسالة تاريخية وسياسية وأخلاقية، فى صورة مراسلة بين كبير الهرابذة تنسر وملك طبرستان جشنسف شاه، الذى لم يكن ملماً إلماماً صحيحاً بحقيقة قيام الأسرة الساسانية، وكان متردداً فى الخضوع لأردشير، الذى كان ينادى ويعمل على توحيد إيران لحكمه، وعلى القضاء على نظام ملوك الطوائف .

وقد تناول تنسر فى كتابه مجموعة من النظم القانونية والاجتماعية، تعتبر من أقدم ما وصل إلينا فى التشريع الإيرانى . وسنكتفى فى هذه المقدمة ببيان بعض ما تعرض له الكتاب من هذه النظم . وسنقصر الحديث على ثلاثة موضوعات منها هى :

نظام الطبقات ، والجرائم والعقوبات ، ونظام الابدال .

١ — نظام الطبقات

تجعل الشريعة الإيرانية المجتمع أربع طبقات : أهل الدين ، وأهل الحرب ، والكتاب ، والمهنة . وتجعل كل طبقة أصنافاً .

فرجال الدين منهم : الحكام، والعباد، والزهاد، والسدنة، والمعلمون .

ورجال الحرب منهم : الفرسان (الأساورة)، والرجالة (بيادة) .

والكتاب منهم : كتاب الرسائل ، والمحاسبات ، والأقضية والسجلات والعقود ، ويدخل فى طبقتهم : الأطباء، والشعراء، والمنجمون .

والمهنة وهم : الزراع ، والرعاة، والتجار ، وسائر أهل الحرف .

والنظام يقضى بالمحافظة على نظام الطبقات ، والتزام كل طبقة حدودها ، فلا ينتقل أحد من طبقة إلى أخرى .

على أن الاستثناء جائز . فاذا لوحظ فى رجل جدارة وفطنة ، فان أمره يعرض على الملك مع تقرير من رجال الدين بأحقيته فى الانتقال من طبقته نتيجة اختبارهم وتجربتهم له . فيصدر أمر الملك بذلك .

٢ – الجرائم والعقوبات

الجرائم عندهم ثلاثة أنواع :

١ – جريمة فى حق الله (الدين) .

٢ – جريمة فى حق الملك .

٣ – جرائم بين الناس .

والعقوبات تتفاوت حسب نوع الجريمة :

١ – فى النوع الأول من الجرائم يسجن الخارج على الدين ، ويتصل به واعظ فى السجن يحاول هدايته ؛ فاذا اهتدى أطلق سراحه ، ودخل فى زمرة المؤمنين ، وإذا استمر فى ضلالته قتل .

٢ – وفى النوع الثانى يقتل بعض المذنبين ، ليكونوا عبرة لغيرهم . وقصـــد المشرع إرهاب من لم يقتل ، فيحذر من الوقوع فى الجرم مرة أخرى .

٣ – وفى النوع الثالث كانت تتبع شريعة القصاص مع الغرامة . فتوقع الجراحة والغرامة معاً بصورة يشقى بها الجانى ويفيد منها المجنى عليه .

وفرض على الغاصب غرامة أربعة أمثال غرامة السارق . وتقطع

أنف الزانى . وجرى القصاص بحيث لا يقطع عضو يعطل المجرم عن العمل، حتى لا يصير عالة على المجتمع .

وأمر الملك بتدوين هذه الأحكام .

وقسمت الشريعة الشعب من حيث معاملتهم إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ الخاصة وأهل الخير . وهم قلة، وسياستهم المودة الخالصة .

٢ ـ أهل السوء . وسياستهم المخافة الصرفة .

٣ ـ العامة من كل جنس . وسياستهم الجمع بين الرغبة والرهبة ؛ فلا أمن يرغبهم ولا رعب يفزعهم .

ووضعت قاعدة تقضى بمراعاة الظروف بالنسبة للجرائم ومرتكبيها ؛ فقد يلزم العقاب بالإعدام فى جريمة العفو عنها أليق، كما قد يلزم العفو فى جريمة الإعدام بها أبين .

ونص على حالة العود بأن تقطع أذن أو أنف المجرم العائد .

وهناك ثلاث جرائم لها عقاب خاص هو التعذيب . أما الجرائم فهى :

١ ـ ممارسة السحر .

٢ ـ قطع الطريق .

٣ ـ تأويل الدين تأويلا محرماً .

وأما التعذيب فقد أقيمت له : ١ ـ البقر ٢ ـ الحمير ٣ ـ الأشجار ؛ وأعدت له الأفيال .

والبقرة وعاء على صورة بقرة ، يذيبون فيه الرصاص ويلقى فيه المجرمون .

وأما الحمار فهو من حديد له ثلاث أرجل،ويعلق به المجرم من رجله حتى يهلك .

وأما الشجرة ففيها أربعة مسامير منصوبة أطرافها إلى أعلى،ويلقى المجرم فوقها فتخترمه .

أما الفيل فكان يلقى المجرم تحت أقدامه حتى يموت .

٣ – نظام الأبدال

وأخذت الشريعة الإيرانية بنظام الأبدال . فاذا مات الرجل ولم يكن له ولد،فاذا كانت له زوجة زوجوها من كان من أقاربه أقرب إليه وأولى . وإذا كان لا زوجة له وله بنت زوجوها على هذا النحو . وإذا لم يكن له زوجة أو بنت اشتروا من ماله جارية وزوجوها كذلك من أقرب أقربائه . وينسب الولد الذى يولد من هذا الزواج إلى المتوفى .

وقد أمر الملك أردشير بأن يكون أبدال أبناء الملوك من أبناء الملوك؛ وأبدال أصحاب الدرجات من أبناء الدرجات .

والفكرة فى الأخذ بهذا النظام اعتقادهم أنه ينبغى أن يبقى نسل الميت حتى آخر الزمان .

ومن تصرف على غير هذا النحو يقتل .

هذه أمثلة من الموضوعات التى وردت فى الكتاب . وهى وغيرها ،

من النظم التى حواها الكتاب على صغره، كانت أساساً للبحوث الحديثة التى كتبها علماء الإيرانيات عن الحضارة الإيرانية .

(٥)

وقبل أن أنهى هذه المقدمة أعترف بأنى لم أكن واثقاً من صحة الترجمة فى أكثر من موضع، وبأنى راجعت هذه الترجمة مرات ومرات، ولم أنته إلى أن أرضى عنها كل الرضا، وبأنى خشيت أن أخرجها للناس فمنعتها سنوات ، إلى أن رآها صديقى وزميلى الأستاذ صادق نشأت فقرأها وحده، ثم قرأناها معاً، وأخذ يستحثنى على إخراجها برغم ترددى، فالنص غير واضح وأسلوبه غير مستقيم فى بعض الصفحات. وأملى كبير فى أن نظفر بنسخة من تاريخ طبرستان أوفى من النسخة التى اعتمد عليها مينوى، والتى يقتنيها إقبال . فان نسخة واضحة ستهيىء ترجمة أتم من هذه وأكمل .

ثم إنى مقتنع بأن ابن اسفنديار حين نقل ترجمة ابن المقفع احتفظ بكثير من الألفاظ العربية التى نجدها فى النص ، فى الأمثال والحكم وآيات القرآن والأحاديث والأشعار وغيرها . وقد رأيت الاحتفاظ بها من أول الأمر ، عسى أن يكون النص العربى الجديد قريباً من نصوص كتب ابن المقفع .

وحسبى بهذا الجهد المتواضع الذى بذلت أنى حاولت أن أعيد إلى اللغة العربية نصاً هاماً، كان قد أنشأه ابن المقفع، ثم فقدته المكتبة العربية .

يحيى الخشاب

ديباجة ابن المقفع

روى ابن المقفع عن بهرام بن خور زاد عن أبيه منوچهر، موبد خراسان وعلماء فارس: حين خرج الاسكندر إلى ناحية المغرب وبلاد الروم، وهو الفتح الغنى عن التعريف، وكان قد سخر له القبط والبربر[1] والعبرانيين، قاد جيشه من هناك إلى فارس وحارب جند دارا. وقد خان هذا الملك بعض خاصته، فأعدوا العدة لقطع رأسه، ثم أحضروا هذا الرأس إلى الاسكندر فأمر بشنقهم، على طريقة الروم فى العقاب، وبأن يتخذوا مرمى للسهام، وبأن ينادى فى الناس «هذا جزاء من يجرؤ على قتل الملوك».

فلما ملك الإسكندر إيران اجتمع فى حضرته جملة أبناء الملوك ومن بقى من العظماء والسادة والقادة والأشراف، فأخافته عظمتهم وجماعتهم، فكتب إلى وزيره ارسطاطاليس كتاباً:

«إنه بتوفيق الله عز وعلا قد بلغنا إيران، وأريد أن أتوجه إلى الهند والصين ومشرق الأرض، وأخشى إن أنا تركت عظماء فارس أحياء أن يثيروا الفتن فى غيبتى فيصعب تداركها، وقد يغيرون

---

(١) يقصد بهم سكان ساحل إفريقيا جنوبى البحر الأحمر. أنظر دارمستتر فى J.A. سنة ١٨٩٤ ص ٥٠٢ هامش ٤.

على بلاد الروم ويتعرضون لبلادنا (٢)، وأرى أن أقتلهم جميعاً وأن أمضى فى هذا غير مكترث » .

فكتب ارسطاطاليس هذا الفصل مجيباً ، قال(١) :

---

(١) جاء فى سرح العيون (طبعة مصر) صفحة ٣٩ وما بعدها :

وكتب الإسكندر إلى أرسطاطاليس يستشيره فيمن بقى من عظماء الفرس بهذا الكتاب

" أما بعد فإن دوائر الأسباب ومواقع الفلك وإن كانت أسعدتنا بالأمور التى أصبح لنا بها الناس دائنين ، فإنا مضطرون إلى حكمتك وغير جاحدين لفضلك والاجتباء لرأيك ، لما بلونا من جدا ذلك علينا وذقنا من جنى منفعته حتى صار ذلك بتجرعه فينا وترشيحه لعقولنا كالغذاء لنا فا تنفك نعول عليه وتستمد منه استمداد الجداول من البحار وقوة الأشكال بالأشكال . وقد كان مما سبق إلينا من النصر وبلغناه من النكاية فى العدو ما يعجز القول عن وصفه والشكر على الإنعام به ، وكان من ذلك أنا جاوزنا أرض الجزيرة وبابل إلى أرض فارس ، فلما نزلنا بأهلها لم يكن إلا ريثما تلقانا نفران منهم بقتل ملكهم طلبا للحظوة عندنا ، فأمرنا بصلبهما لتجرئهما وقلة وفائهما ، ثم أمرنا بجمع من هنالك من أبناء ملوكهم وذوى الشرف منهم فرأينا رجالا عظيمة أجسامهم وأحلامهم يدل ما ظهر من رؤيتهم على أن وراءه من قوة بأسهم ما لم يكن معه سبيل إلى غلبتهم لولا أن القضاء أدالنا منهم ، ولم نر بعيدا من الرأى أن نستأصل شأفتهم ونلحقهم بمن مضى من أسلافهم ، لتسكن بذلك القلوب إلى الأمن من جرائرهم ، ورأينا أن لا نعجل ببادرة الرأى فى قتلهم دون الاستظهار بمشورتك فيهم ، فارفع الينا رأيك فيما استشرناك بعد صحته عندك وتقليبه على نظرك على عادة آرائك المسعفة والسلام على أهل السلام فليكن عليك وعلينا " .

فكتب إليه أرسطاطاليس :

إلى الاسكندر المؤيد المهدى له الظفر من أصغر خوله أرسطاطاليس ، أما بعد

فقد تقرر عندى من مقدمات فضل الملك ويمن تعيينه وبروز شأوه وما أدى إلى حاسة بصرى صورة شخصه ووقع فى فكرى على تعقب رأيه أيام كنت أؤدى إليه من تعليمى إياه ما أصبحت قاضيا على نفسى بالحاجة إلى تعلمه منه ، وقد ورد كتاب الملك بما رسم لى فيه وأنا فيما أشير به على الملك حد الطاقة معه كالعدم مع الوجود ولكن غير ممتنع من إجابته فأقول : =

«من الحقائق أن أمة كل إقليم فى العالم تختص بفضيلة وميزة وشرف ليس لأهل الأقاليم الأخرى حظ منها . وقد امتاز أهل فارس بالشجاعة والجرأة وفنون القتال ، وهى ركن ركين من أسباب السيادة والتفوق ، فإذا أنت أهلكتهم فإنك ستمحو من العالم أعظم ركن من أركان الفضيلة . وإذا قضى عظماؤهم فانك لا محالة محتاج إلى إحلال السفلة فى منازلهم ومراتبهم . واعلم حقاً أن ليس لشر أو بلاء أو فتنة أو وباء ما لبلوغ السفلة إلى مراتب السادة من أثر سيئ، فحذار حذار واصرف همتك عن هذا العزم ، واقطع ، بكمال عقلك ، لسان التهمة

= ان لكل تربة لا محالة قسما من كل فضيلة وإن لفارس قسمتها من النجدة والقوة وإنك إن تقتل أشرافهم تخلف الوضعاء منهم وترث سفلتهم منازل عليتهم ، وتغلب أدنياؤهم على مراتب ذوى أخطارهم ، ولم تبتل الملوك قط ببلاء هو أعظم عليهم من غلبة السفلة وذل الوجوه . واحذر الحذر كله من أن تمكن تلك الطبقة من العلية ، فإن نجم منهم ناجم على جندك وأهل بلادك دهمهم مالا روية فيه ولا منفعة معه ، فانصرف عن هذا الرأى إلى غيره واعهد إلى من قبلك من العظماء والأحرار فوزع بينهم مملكتهم وألزم اسم الملك كل من وليته منهم ناحية واعقد التاج على رأسه وإن صغر ملكه فإن التسمى بالملك لازم لاسمه ، والمنعقد له بالتاج لا يخضع لغيره ، ولا يلبث ذلك أن يوقع بين كل ملك منهم وبين صاحبه تدابراً وتغالباً على الملك وتفاخراً بالمال ، حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك ويعود بذلك حربهم لك حرباً بينهم ، ثم لا يزدادوا فى ذلك بصيرة إلا أحدثوا هنالك استقامة لك ، فإن دنوت منهم كانوا لك ، وإن نأيت عنهم تعززوا بك ، حتى يثب كل منهم على جاره باسمك ، وفى ذلك شاغل لهم عنك وأمان لأحداثهم بعدك ولا أمان للدهر ، وقد أديت للملك ما رأيته حظا وعلى حقا والملك أبعد روية وأعلى عينا فيما استعان بى عليه والسلام الأبدى فليكن على الملك » .

وجاء نص الخطاب ، قريباً من نص ابن المقفع ، فى نهج البلاغة الجزء ٤ ص ١٣٠

الذى هو أبعد أثراً وأشد ألمـاً من السنان الذى يودى بالأرواح ، لكى لا تمحى الشريعة والسمعة الطيبة ، نتيجة سوء الظن لا عن يقين ، من أجل المتاع فى هذه الحياة الفانية .

فانما المرء حديث بعهده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

رباعى (٣) :

لو طال بك العمر ثلاثمائة سـنة ،
فعـد عمرك الأبدى أسـطورة ،
أيها العاقل، مادمت ستكون أسطورة ،
فلتكن أسطورة خير لا أسطورة شر .

فعليك أن تؤيد أصحاب البيوت وأرباب الدرجات والأمراء والكبراء، بمكانتك ووفائك وعنايتك وعطائك ، وأن تبعد عن خواطرهم أسباب الضجر والقلق بعطفك ومودتك ؛ فقد قال الأقدمون : ما لا ينتهى بالرفق واللطف لا ييسره القهر والعنف . والرأى أن تفرق مملكة فارس على أبناء ملوكهم ، وأن تهب التاج والتخت لمن تختاره منهم فى كل طرف ، ولا تخص واحداً منهم بالرفعة والتفوق وسلطة الأمر دون الآخرين ؛ ذلك حتى يجلس كل منهم على عرشه مستقلا ، فإن فى اسم الملك غروراً عظيما ، والرأس الذى يحمل التاج لا يقبل أن يدفع الجزية أو أن يخضع لغيره . وسوف يظهر بينهم شديد التقاطع والتدابر والتغالب والتطاول والتقاتل على الملك ، والتفاخر والتكاثر على المال ، والتنافر على الحسب ، والتجاسر على الحشم ، فلا ينهضون للانتقام منك ، ولا يفكرون فى الماضى ، لانصرافهم إلى ما بينهم من شأن ،

فإذا أنت ذهبت إلى أقصى الأرض فإن كلا منهم سيخيف صاحبه بحولك وقوتك ومعونتك . وهكذا يتم لك ولمن بعدك الأمان، ولو أن الزمان لا أمان له ولا اعتماد عليه » .

فلما وقف الإسكندر على هذا الجواب استقر رأيه على العمل بمشورة أرسطاطاليس، فقسم إيران بين (٤) أبناء ملوكها ولقبوا بملوك الطوائف[١]؛ ثم ساق الجيش من هذه البلاد إلى المشرق وسخر الناس واستولى على الدنيا لما أكرمه به مالك الملك من أسباب . وحين عاد ، بعد أربع عشرة سنة ، بلغ بابل فترك ما ملك ثم قضى نحبه .

بيت :

رأينا الدنيا ، إنهـا لا تساوى شيئاً
كل ملك العـالم لا يقوم بأبخس ثمن

وتفرق ، مثل بنات نعش ، جيشه الذى كان منسقاً كالثريا ، ولم يكن جدثه قد توسد الثرى بعد ، حين أهطع جنده إلى أوطانهم كالريح ، وفرق الزمان هذه الجماعة وشتت هذا التكاثر ، ومضى على هذا تعاقب الملوين وتلاعب الحدثان .

ثم إنه بعد طول الأمد خرج اردشير بن بابك بن ساسان ، وكان

---

(١) جاء فى البندهشن الكبير : «ثم إنه فى عهد دارا بن دارا هجم الاسكندر من بلاد الروم على إيران وقتل دارا وقضى على العنصر الملكى كله وعلى المجوس وعظماء الدولة . ثم أطفأ كثيراً من النيران المقدسة ، وأخذ الزند ، وأرسله إلى بلاد الروم ، كذلك أحرق الاوستا ؛ وقسم ايرانشهر إلى تسعين ولاية صغيرة » . أنظر دار مستتر فى J.A. ص ٥٠٥ - ٥٠٦ ، هامش ٢ .

وتذكر هذا كتب التاريخ الإسلامى عامة .

أردوان، فى ذلك الوقت، ملكاً على نهاوند وأرض العراقين والماهات،[1] ماه نهاوند وماه بسطام وماه سبذان[2]، وكان أردوان أعظم ملوك الطوائف وأكثر من يطاع فيهم؛ فقبض عليه أردشير مع تسعين[3] من أبناء ملوك الطوائف الذين نصبهم الإسكندر، ثم قتل بعضهم بالسيف، وبعضهم بالسجن، وعفا عن أردوان.

وفى ذلك الوقت كان على فدشواز[4] وطبرستان الملك العظيم

---

(١) المقصود بالماهات الولايات التى كانت تتكون منها ميديا القديمة. دارمستتر ص ٥٠٦، هامش ٣. وانظر كتاب «إيران باستان»، پيرنيا، المجلد الأول، ص ١٦٨ وما بعدها.

(٢) المقصود بها ما سبدان التى سماها Pline مَسَرْبادِن. دارمستتر ص ٥٠٦ هامش ٤. وانظر مينوى حواشى ص ٥٠.

(٣) أنظر نص البندهشن الكبير المشار إليه فى الصفحة السابقة.

(٤) تكتب فى أغلب الكتب العربية والفارسية «فرشوادگر». وأصلها «پذشخوارگر». وهى اسم لسلسلة الجبال الواقعة جنوب طبرستان. وجاء ذكر سلسلة جبال «پتشخوار» أو «پتشخوارگر» أيام الساسانيين فى «كارنامه اردشير»؛ وهى شعبة من سلسلة جبال «أپارسن» التى ذكرت فى الأوستا باسم «اوپايرى سينا»، وذكرت فى نقش دارا باسم «پتيشوارش» أى «پيش خوار كوه» ومعناها الجبل الواقع أمام خوار. ويطلق سترابون اسم «پتشخوار» على جبال البرز. ويقول پروكوپيوس فى حديثه عن كيوس (أخى انوشروان) إنه يلقب بـ «پتشوار شاه».

وقد جاءت كلمة «پتشخوار» أو «پتشغوار» فى الكتب الإسلامية، ككتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبه الذى ذكر «بدشوارگر شاه» ضمن من سماهم اردشير ملوكا ثم يقول «وفيه طبرستان والرويان وجيلان و «بدشوارجر» وملك طبرستان وجيلان، و «بدشوارجر» يسمى جيل جيلان خراسان».

وتحدث البيرونى فى «الآثار الباقية» عن ملوك الجبال فقال: =

القدر الرفيع الرتبة جشنسف شاه . وقد أخذه أردشير بالرفق لأن أجداده كانوا قد استولوا عنوة على بلاد فدشوار من نواب الإسكندر ، وساروا على سنن وسياسة ملوك فارس ؛ فلم يرسل أردشير جيشاً إلى ولايته ، وتحرى المجاملة والتسامح فى معالجة ما بينهما من خلاف حتى لا يصل الأمر إلى المقاتلة والمناضلة . فلما تبين لجشنسف شاه ملك طبرستان جلياً أن لاحيلة فى الطاعة والخضوع لأردشير ، كتب إلى تنسر ، هربذ هرابذة أردشير . ويقول بهرام خور زاد(٥) إنه سمى تنسر لأن الشعر قد نما بغزارة فوق أعضاء جسده حتى كان جسده كله مثل رأسه[١] . فلما قرأ تنسر كتاب ملك طبرستان أجاب بقوله :

متن الكتاب

بلغ تنسر خطاب من جشنسف ملك طبرستان وفدشوار گر (جيلان وديلمان ورويان[٢] ودنباوند) فقرأه ثم سلم وسجد . وقد طالع

= « وأما الأصل الآخر فلوك الجبال الملقبون باصفهبدية طبرستان و « الفرجوارجر شاهية » .

وذكر سيد ظهير الدين فى « تاريخ طبرستان ورويان وما زندران » ما ترجمته ان « طبرســتان داخل « فرشواد گر » وفرشواد گر هى آذربيجان وگيلان وطبرستان ورى وقومش » .

أنظر حواشى مينوى ص ٥١ - ٥٢ . ودارمستتر ص ٥٠٧ .

(١) تن بمعنى الجسد ، سر بمعنى الرأس .

(٢) ذكرت فى « زامياد يشت » رئوذيت Rhoadhita (أو رئوايذيتا) (فقرة ٢) ، وجاءت فى « بندهشن » روذيشنومند (فصل ١٢ فقرة ٢٧)، واللفظ معناه الجبل الذى ينبت فوقه العشب الأسود الكثيف . وذهب دار مستتر إلى أن المقصود بالكلمة هو جبل رويان الذى ذكر الجغرافيون العرب أنه فى طبرستان .

أنظر أدبيات مزديسنا ، يشتها ، پور داود ، الجزء ٢ ص ٣٢٥ .

كل ما فى الكتاب من صحيح وسقيم ، وسر به ، ولو أن بعضه سديد وبعضه فاسد ، آملا أن يزداد صوابه وأن يصلح سقيمه .

أما بعد :

فأما دعاؤك لى وتعظيمك لشأنى ، فما أسعد من استحق مديح مثلك، وإن الله (الداعى)، وهو الخالق مجيب الدعوات ، ليدعو لك، أنت الملك سليل الملوك ، أكثر مما أدعو ، ويطلب لك النجاح مثل ما أطلب .

تقول فى كتابك لعبدك تنسر ، إنه كان لى عند أبيك منزلة كبيرة، وإنه كان يطيعنى فيما أذهب إليه من رأى . وإنه قد مات وليس بعده من هو أقرب إليه وإلى أولاده منى ، خلد الله روحه وأبقى ذكره . (٦) كان يعظمنى ويكرمنى أكثر مما أستحق ، وكان يطيب نفساً بالأخذ برأيى ومشورتى ، وكذلك كان يفعل مع باقى الناصحين الأمناء . ولو امتد عمر أبيك لهذا العهد ، لسبقك بتدبيره ولما صبر وتأخر مثلك ولقام بما توانيت عن نفاذه ، ولبادر به .

أما وقد لجأت إلى مشورتى ، وشرفتنى بسؤالى ، فاعلم أن حالى معروف للناس جميعاً ، وليس يخفى على العقلاء والجهلاء والأوساط والسوقة أنى لبثت خمسين عاماً أروض نفسى الأمارة على الامتناع عن لذة النكاح[1] والاتصال بالنساء وكسب المال والتمتع بالحياة ،

---

(١) الامتناع عن الزواج مكروه فى ديانة زردشت . والمؤمن يساعد بزواجه اهورامزدا على الإكثار من المؤمنين الذين يثبتون الخير فى الأرض ويقاومون الشر . والجمعية الإيرانية (المزدية) لا تعطى حقوق المواطن إلا لمن يكون رب أسرة « فالرجل المتزوج أعلى قدراً من الأعزب » (ونديداد ٤، ٤٧) . ويتفاوت =

وما منيت قلبي أو طلبت ما تريده نفسي . فأنا في الدنيا حبيس سجين ، ذلك ليعلم الناس عدلى وليطلبوا إلى ما فيه صلاح دنياهم وفلاحهم فى آخرتهم ، وما فيه تعففهم عن الفساد ، فأهديهم إلى هذا كله ، ولكى لا يظنوا أو يتصوروا أنى أشتغل بطلب الدنيا بالخداع والختل أو يتوهموا أنى أحتال عليهم . ولقد أعرضت منذ زمن بعيد عما هو محبوب فى الدنيا واسترحت إلى ما هو مكروه فيها ، فعلت ذلك ليستجيب لى الناس إذا دعوتهم للرشد والحسنى والخير والسعادة ، ولكى لا يردوا نصحى لهم

= قدر رب الأسرة حسب عدد من ينجب من أولاد ، كما تتميز قبيلة على أخرى بكثرة أصحاب الأسر فيها . ولابد للإيرانى ، كى يصبح مواطناً ، أن يتخذ لنفسه بيتاً وزوجاً ، وإلا فلا نصيب له فى الحياة العامة .

أنظر كتاب La Famille Iranienne للدكتور على أكبر مظهرى ص ٥١ ...

والظاهر أن تنسر لم يؤثر هذا السلوك تحبيذاً له فى ذاته ولكن كان الدافع إليه اعتبارات عملية (أنظر دارمستتر فى J. A. حاشية ص ٥٠٩) . وقد نقل دارمستتر أن الملك أردشير « لما خلا من ملكه أربع عشرة سنة وقيل خمس عشرة سنة واستقامت له الأرض ومهدها ، وصال على الملوك فانقادت لطاعته زهد فى الدنيا وتبين عوارها وما هى عليه من الغرور والعناء وقلة المكث وسرعة الغيلة منها إلى من أمنها ووثق بها واطمأن إليها ، وبان له أنها غرارة ضرارة ختالة زائلة بائدة ما اعذوذب منها جانب لامرىء وحلا إلا تمرر منها عليه جانب . ورأى أن من بنى قبله المدائن وحصن الحصون وساق الجموع وكان أعظم جيشاً وأشد جنودا وأتم عديدا قد صار رميما هشيما وتحت التراب مقيما فآثر التفرد عن المملكة والترك لها واللحاق ببيوت النيران والانفراد بعبادة الرحمن والأنس بالوحدة فنصب ابنه سابور » .

أنظر مروج الذهب ج ١ ص ١٥٣ طبعة مصر .

والظاهر ان اعتزال أردشير كان بعد انتهائه من رسالته فى إقامة الدولة الساسانية واستقرارها ، ولم يكن عن إيثار للعزلة عن المجتمع .

بالمعصية . وكذلك والدك السعيد بعد تسعين عاماً من الحياة وبعد أن ملك طبرستان ، كان يستمع إلى قولى بأذن صاغية . وليس فيما أقول خيال قط . وإنى أقصد من ذلك (٧) أن أعرض عليك طريقتى وسيرتى فى الحياة ، وهى ليست من وضعى أو صناعتى ..

وأنى لى الجرأة التى تدفعنى إلى أن أتطاول على الدين فأحرم ما أحله من النساء والشراب واللهو ؛ فمن حرم الحلال كمن حلل الحرام ، ولكنى أخذت هذه السنة وتلك السيرة عن رجال كانوا أئمة الدين وأصحاب الرأى والكشف واليقين مثل فلان وفلان ، وهم تلاميذ الشيوخ والحكماء المتقدمين أيام دارا . وهؤلاء رأوا الفساد واستمعوا لسفاهة السفهاء والسفلة ، وشاهدوا إعراض الجهال عن الحكماء ، وقلة مبالاتهم بهم والتفاتهم إليهم . وقد زال من نفوس الجهلاء احترام أهل الفضل وإجلالهم ، وتركوا سيرة الإنسان واتخذوا طبيعة الحيوان . فلما آثر أهل الفضل ألا يصبحوا جهلاء بسبب عار إخوانهم ورفقائهم ، حطموا قلوبهم وفروا من لعب الثعالب واستراحوا إلى الوحوش والنمور وتركوا الدنيا ورفضوا الشهوات وتبعاتها الكثيرة ، وتعلموا مجاهدة النفس والصبر على العذاب وتجرع كئوس الحرمان ، واختاروا هلاك النفس من أجل سلامة الروح ، فانه قد جاء فى التوراة « هجران الجاهل قربة إلى الله عز وجل » .

نظم :

خص بإحسانك رجلين ،

ليس فى الدنيا أتعس ولا أذل منهما .

أحدهما رجل طيب عاقل ،
يبقى ضعيفاً فى يد الجهلاء ،
والآخر ملك فقد التاج والتخت ،
وأوقعه فى الفاقة سوء طالعه .

وليكن معلوماً لملك الدنيا وأميرها أن الحكماء يعدون الملك قوياً إذا التفت (٨) إلى المستقبل أكثر من التفاته إلى هموم زمنه ، وبهذا يعلو اسمه فى الدنيا والآخرة .

قال أحد ملوك فارس خاقان الترك : « أريد أن أنتقم اليوم من الترك انتقاماً لمائة عام بعدى » . وكل ملك يترك أصول الحكم من أجل صلاح يومه ويقول : « إن أثر فساد هذا العمل سوف يظهر بعد مائة عام فأنا اليوم لا أنتقم إذ لن أعيش لذاك العهد » ، فعليه أن يعلم أن زمن أهل ذلك العهد ، إذا كانوا جميعاً ، حسب ما قال ، من أحفاده ، سيكون لا محالة أطول من زمانه ، وستكون مدة ذكره أبقى . وقد ذكرت لك ذلك المعنى لتعلم أن كل من شاورنى فهو عندى بمثابة من يصنع بى جميلا ، ويسعدنى أن يتأثر بنصحى ، وهذا عين سعادتى فى الدنيا . ولن يستطيع أحد من ملوك الأرض وأهل القدرة أن يسدى إلى إحساناً أو يزيد سرورى بشىء أكثر من هذا . ولا تعجب من حرصى على صلاح الدنيا ورغبتى فيه من أجل إقامة قواعد أحكام الدين ، فان الدين والمُلك توأمان[١] ، لا ينفصلان أبداً ، ويعتريهما الصلاح والفساد

---

(١) هذه العبارة أساس من أسس الحكم الساسانى ، وقد ذكرها الفردوسى فى الشاهنامه فقال على لسان أردشير ينصح ولده :
=

والصحة والسقم . وإنى لسعيد بعقلى ورأيي أكثر من سعادة صاحب المال بماله والوالد بأولاده . واللذة التى أنالها من اتباع رأيي أعظم من ملاذ الشراب والغناء واللهو واللعب . ذلك أن السرور عندى أنواع : أولها صورة الصواب التى أعتقدها وأرى نتائجها كل صباح ومساء (٩) متمثلة فى ظهور الصلاح بعد الفساد والحق بعد الباطل ؛ وثانيها سرور أرواح الصالحين الراحلين برأيي وعلمى وعملى ، وها أنذا أسمع أصواتهم تعلو « أحسنت » ، وأرى السعادة والبشر فى وجوههم ؛ وثالثها علمى بأنه سوف تكون بين أرواحنا وأرواح الموتى ألفة لا يشوبها خلاف ، وحين تتصل أرواحنا بأرواحهم سوف نحكى بعضنا لبعض ما صنعنا وسوف نجد السعادة فيما عملنا .

هذا ليعلم الملك ابن الملك أن رأيي نحو جميع الخلق ليس مبنياً إلا على البر والمكرمة . وإنى ناصحك بأن تركب الحصان وتحضر تاجك وتختك إلى حضرة الملك (الشاهنشاه) وأن تعلم أن التاج هو ما يضعه فوق

= چو بر دين كند شهريار آفرين برادر شود پادشاهى و دين
نه بى تخت شاهى بود دين بپاى نه بى دين بود شهريارى بجاى
دو ديباست يك بر دگر بافته برآورده پيش خرد يافته
نه از پادشا بى نياز است دين نه بى دين بود شاه را آفرين

وتذكرها كتب التاريخ العربية ، ويقول ابن مسكويه فى تجارب الأمم ذاكرا عهد أردشير لمن بعده من الملوك :

« واعلموا أن الملك والدين توأمان ، لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه . لأن الدين أس الملك وعماده ، وصار الملك يعد حارس الدين ، فلابد للملك من أسه ، ولابد للدين من حارسه ، فإن مالا حارس له ضائع ، وإن مالا أس له مهدوم » .

وانظر حواشى مينوى ص ٥٣

رأسك ملك الملوك، وأن المُلك هو مايودعه إليك . وإنك سمعت صنيعه مع كل من توجه وملكه ، ومن هؤلاء قابوس ملك كرمان الذى جاء طائعاً منقاداً لخدمة الجناب المنيع فقبل بساطه الرفيع وأسلم إليه تاجه وتخته ، وقدقال ملك الملوك للموابذة: « لم يكن من رأينا أن نخلع لقب الملك على إنسان فى ممالك آبائنا إلا أن قابوس لجأ إلينا فدعا ذلك لرسم جديد، ولما لنا من رفق به وحرص عليه، نريد ألا ينقص من شأنه شىء وقد ضممنا إلى تاجه وتخته الإقبال والسعد . وكل من يجىء إلينا مقدماً فروض الطاعة لن نخلع عنه لقب الملك ما دام يمضى مستقيما على طريق الخضوع [1] . ولا يجوز أن يطلق لقب الملك على أحد من غير أهل بيتنا عدا أصحاب الثغور وهى ألان وناحية المغرب وخوارزم وكابل [2]

ولن نجعل الملك (١٠) وراثياً كما جعلنا غيره من المراتب .

وسيلازم بلاطنا ، بالتناوب ، أبناء الملوك .

وينبغى ألا يمنحوا رتباً ، إذ لو عملوا للحصول على الرتب لوقعوا

---

(١) كان عظماء الأشراف فى الدولة الساسانية يحملون لقب ملك ، وهذا سوغ أن يكون لقب ملك إيران « ملك الملوك » (شاهنشاه) . وأفراد هذه الطبقة هم الذين يطلق عليهم لقب « شهرداران »،وهى تشمل أولا الأمراء التابعين الذين يحكمون ولايات فى أطراف الدولة وحكام الإمارات التى كانت خاضعة لحماية ايران ، مثل ملوك الحيرة ، وملوك الكيوشيت والبان .

أنظر « الإمبراطورية الساسانية L'Empire Sassanide » الترجمة العربية ليحيى الخشاب ص ٨٤ ـ ٨٥ ، والأصل Christensen ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٢) كان التقسيم القديم للدولة إلى أربع ولايات يسمى حكامها مرازبة ، وكان المرازبة الأربعة يحملون لقب ملك . وقد احتفظ الساسانيون بهذا التقسيم .

المرجع السابق ، الترجمة العربية ص ٨٥ .

فى النزاع والجدال والقيل والقال ولذهبت هيبتهم ولسقطوا فى أعين الناس. فماذا تقول فى هذا ؟ إذا أعجبك هذا الرأى فأنفذه وإن لم يصادف منك قبولا فبين ما تراه الأصلح . وإذ كانت بداية هذا الأمر ونهايته مقرونة بالصلاح والنجاح فقد تنفذ ، وأعاد لقب الملك لقابوس .

وقد أطلت بهذا القدر لأن الأمير طلب إلى أن أعجل ببيان سبيل الصلاح له ، وإن عليك أن تعتزم اتخاذ رأى عاجل وأن تحضر مسرعاً لخدمة الملك حتى لا ينتهى الأمر بأن يطلبك فتصبح مذموماً ، ويصير عقبك أذلاء ، وتبتلى بغضب الملك . ولن يتحقق لك فى الغد ما نأمله لك اليوم ، وستخرج من منزلة الطاعة إلى مقام الإكراه .

وقد سألتنى أسئلة أخرى عن أحكام الملك ، وقلت إن بعضها ليس بمستنكر ، وبعضها الآخر غير مستقيم . فأجيبك على ما كتبت إلىّ من أنّ :

— ١ —

« الملك بمطالبته بحق الأولين سوف يترك السنة ، ولو استقام هذا العمل فى الدنيا فانه ليس بمستقيم فى الدين » .

إعلم أن السنة نوعان ، سنة الأولين وسنة الآخرين[1] . فأما سنة الأولين فهى العدل ، وقد درست معالم طريق العدل إلى حد أنك لو وصفت رجلا فى عهدنا هذا بأنه عادل لحمله الجهل على العجب

(١) المقصود بسنة الأولين ، المبادئ الدينية الأصلية القديمة فى دين زردشت والمقصود بسنة الآخرين المبادئ التى يجرى العمل بها . وقد عبرت الاوستا عن النوع الأول بكلمة بوريو تكيش وعن النوع الثانى بكلمة آبر تكيش ومعنى اللفظ الأخير القانون المعمول به والذى تطورت إليه المبادئ القديمة نتيجة مرور الزمن وعدم التمسك بالدين تمسكاً قوياً لا يعرض قواعده للتبديل . حواشى دار مستتر فى J.A. ص ٥١٤ .

واستصعاب الأمر. وأما سنة الآخرين فهى الجور، فقد استراح الناس إلى الظلم إلى حد (١١) أنهم لايتحولون عن سبيله الضارة إلى المنفعة التى يحصلون عليها بتفضيل العدل. بل إنه لو أحدث المحدثون عدلا لقيل: « ليس هذا لائقاً بهذا الزمان » ولهذا لم يبق للعدل ذكر ولا آثار. ولو نقض الملك شيئاً من ظلم الأولين الذى لا يصلح لعهدنا وزماننا لقيل: « إن هذا (الذى نقضه الملك) رسم قديم وقاعدة من قواعد الأولين ». ويجب أن تعلم الحقيقة: يجب الاجتهاد لتبديل آثار ظلم الأولين والآخرين. فالجدير بالاعتبار عندنا أن الظلم غير محمود فى جميع العهود سواء منها القديم والجديد وسواء أقام به الأولون أم الآخرون. وأن هذا الملك مسلط على الظلم وإن الدين حليفه وإنه قادر على القضاء على أسباب الجور ومحقها، فإنا نرى أن له من الأوصاف الحميدة أكثر مما للأولين، وأن سنته خير من سنن الماضين. وإذا نظرت فى أمر الدين واستنكرت ما ليس له وجه فيه علمت أن الإسكندر أحرق من كتابنا اثنى عشر ألف جلد بقرة باصطخر وبقى ثلث هذا القدر(١) محفوظاً فى الصدور، وجملة هذا القدر المحفوظ قصص وأحاديث، ولم تحفظ الشرائع والأحكام، بل إن جملة هذه القصص والأحاديث أيضاً قد ذهبت من ذاكرة الناس بسبب فساد أهل الزمان وذهاب الملك

(١) ذكر المسعودى فى المروج « وأتى زردشت بكتابهم هذا — الأوستا — بلغة يعجزون عن ايراد مثلها ولا يدركون كنه مرادها ... وكتب هذا الكتاب فى اثنى عشر الف مجلد بالذهب فيه وعد ووعيد وأمر ونهى ... فلم تزل الملوك تعمل بما فى هذا الكتاب إلى عهد الإسكندر وما كان من قتله لدارا بن دارا فأحرق الإسكندر بعض هذا الكتاب. » ص ١٤٢ ج ١ طبعة مصر.

والحرص على البدع والتمويهات والغرور بحيث لم يبق منها حرف من الصدق . فلا مندوحة من أن يكون الرأى الصائب هو إحياء الدين .

فهل رأيت أو سمعت بوصف ملك غير هذا الملك نهض لهذا الأمر؟ وقد عرفتم (١٢) أنه مع ذهاب الدين ضاعت أيضاً علوم الأنساب والسير والأخبار وامحى ذكرها ، وكان البعض يكتبونها فى الدفاتر والبعض ينقشونها على الأحجار ؛ حتى لم يعد ذكر عن أخبار من قضى من آبائكم . وكيف يمكن المحافظة على عامة الأخبار وسير الملوك وخاصة على علم الدين الذى لا انقضاء له إلا بانقضاء الدنيا ؟ إنه لا جدال فى أن الناس فى الزمن الأول ، مع معرفتهم لعلم الدين ومع ثباتهم ويقينهم ، كانوا محتاجين إلى ملك صاحب رأى ليقضى فيما يقع بينهم من خلاف ولا قوام للدين ما لم يبينه الرأى .

— ٢ —

وأما ما كتبت من أن الملك « يطلب من الناس المكاسب والمروءة » . فاعلم أن الناس فى الدين أربعة أعضاء[١] ، وقد ورد كثيراً فى كتب

---

(١) انقسم المجتمع الإيرانى القديم إلى ثلاث طبقات : آثرون ، رثيشتر ، واستريه ، ويعبر عن هذه الطبقات بالپهلوية : آسروك ، آرتشتار ، واستريوش ؛ ومعناها بالفارسية الحديثة : آذربان ، رزمى أو سپاهى ، برزيگر أو كشاورز . واعتبر أهل الحرف والصناعة جزءا من الطبقة الأخيرة ثم أطلق عليها اسم خاص وجعلت طبقة وحدها وسموها هوتيى ، وعبر عنها بالپهلوية هوتخش .

أنظر يسنا ، جلد أول ، ملحوظة ٢ على يسنا ١٩ (١٧) ، ص ٢١١ . پورداود .

وانظر يشتها ، جلد ٢ ، ملحوظة ٣ ، ص ٣٣١ . پورداود .

الدين ، بلا جدال أو تأويل أو خلاف أو أقاويل ، أن هؤلاء يسمون الأعضاء الأربعة . ورأس هذه الأعضاء الملك .

والعضو الأول هو أهل الدين . وهذا العضو أصناف ، فمنه الحكام والعباد والزهاد والسدنة والمعلمون[1] .

والعضو الثانى المقاتلة ، وهم قسمان : الفرسان والرجالة ، وهم يتفاوتون بعد ذلك بمراتبهم وأعمالهم .

والعضو الثالث الكتاب ، وهم أيضاً طبقات وأنواع ، فمنهم كتاب الرسائل والمحاسبات والأقضية والسجلات والعقود وكتاب السير . ويدخل فى طبقتهم الأطباء والشعراء والمنجمون .

والعضو الرابع المهنة ، وهم الزراع والرعاة والتجار وسائر أهل الحرف

=وجاء فى مروج الذهب أنه كان مما حفظ من مكاتبات أردشير إلى خواص من أنواع رعيته وعماله : من أردشير بن بهمن ملك الملوك إلى الكتاب الذين بهم تدبير المملكة ، والفقهاء الذين هم عماد الدين ، والأساورة الذين هم حماة الحرب ، وإلى الحراث الذين هم عمرة البلاد ... ص ١٥٤ ج ١ طبعة مصر .

ويقول Christensen إننا نجد أيام الساسانيين تقسيما جديداً إلى أربع طبقات . فقد أصبح الكتاب (ديبهران = دبيران) الطبقة الثالثة ، وكون الصناع والزراع الطبقة الرابعة . ص ٨٢ من الترجمة العربية ليحيى الخشاب .

وانظر Benveniste فى J. A. ، ١٩٣٢ ، ص ١١٧ ...

Les Classes sociales dans la Tradition Avestique.

(١) يقابل هذه الألفاظ فى البهلوية : داور (داد ور) = الحاكم أو القاضى ، موبد (مگوبت) = الزاهد ، مگو اندرزبد = المعلم ، رذ = السادن . وهى طبقات رجال الدين الأربع .

دار مستتر ص ٥١٨ (J.A.) .

والناس فى عهد زاهر دائماً ما حافظوا على هذه الأعضاء الأربعة (١٣) ولم ينتقلوا من طبقة إلى أخرى[1] .

(١) قامت الجمعية الإيرانية على عمد منها النسب . وكان الانتقال من طبقة إلى أخرى أعلى منها استثناءً ثقيل القيود . وقصة الخفاف وانوشروان تبين إلى أى حد كان التشدد فى ألا يرق ولد المحترف إلى طبقة الكتاب .

أنظر القصة فى الشاهنامة العربية للبندارى ، نشر أستاذنا عبد الوهاب عزام ، ج ٢ ص ١٦٢ وما بعدها .

ويحرم البرسيون فى عصرنا هذا أن يدخل طائفة رجال الدين من ليس من أبناء هذه الطائفة . فلكى يكون الرجل موبداً لابد أن يكون ابن موبد . أنظر دارمستتر ص ٥١٩ (J. A.) .

وقد روى سعد الدين الوروينى أن أحد ملوك الساسانيين أمر بدعوة الناس من جميع الطبقات إلى وليمة ، وبأن يجلسوا حسب مراتبهم ، ثم قدمت اليهم أفخر المأكولات .. ثم اعتلى الملك عرشه وأمر المنادى بإذاعة مثال قال فيه : « أيها الحاضرون أمام الملك التفتوا ، أيها الحاضرون من الندماء ورجال الديوان انظروا إلى من هم أقل منكم طبقة ولا تتطلعوا إلى من هم أعلى طبقة منكم ، ليقنع كل منكم بما هو فيه وليحمد ربه على المرتبة التى هو منها حين ينظر إلى غيره ممن هم أقل منه » . وهكذا أخذ كل رجل ينظر إلى من هو دونه . حتى إن من كان آخر أقرانه من آخر الطبقات أحس بالسعادة حين نظر لمن أدى به سوء سلوكه إلى التعزير ، وكان هذا يحس أنه أحسن حالا من عوقب ليكون مثلا مروعا لغيره ، وكان من حكم عليه بمثل هذه العقوبة حين يرى من صلب أو قطعت رقبته ... يعد نفسه سعيدا لأنه ليس فى مكان أحد منهم .

أنظر مرزبان نامه نشر ميرزا محمد القزوينى . GMS (VIII) ص ٢٧٧ .

ويقول اردشير فى وصيته لشابور :

سر تخت شاهان بپيچد سه كار نخستين ز بيداد گر شهريار
دیگر آنکه بیمایه را بر کشد ز مرد هنرمند بر تر کشد
سديگر كه باكنج خويشى كند بدينار كوشد كه بيشى كند

وهكذا يجعل أردشير محاباة أهل الطبقة الرابعة وإيثارهم على أهل الطبقات الأخرى من أسباب اضطراب الدولة .

الفردوسى : الشاهنامة « سپردن اردشير كارپاد شاهى رابشاپور » .

ولا يجوز مطلقاً أن ينتقل أحد من طبقة إلى أخرى ، إلا أن يلاحظ فى امرئ أهلية شائعة فإن أمره يعرض على الملك ، بعد اختبار الموابذة والهرابذة إياه وطول مشاهدتهم له ؛ فاذا رأوه مستحقاً أمر الملك بإلحاقه بغير طبقته .

وإذا ضل الناس فى زمان الفساد ، ولم يكن من سلطان يضبط الأمن ، طمعوا فيما ليس لهم ، وضاعت الآداب وأهملت السنن وأغفل الرأى ، وأقحم الخلق أنفسهم فى مسالك لا تعرف نهايتها ، وصرحت الغلبة ، وحمل بعضهم على بعض برغم تفاوت المراتب والأقدار ، حتى يقضى على الدنيا والدين جميعاً ، ويغدو الناس كالشياطين والوحوش ، كما جاء فى القرآن الكريم « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » (١) ؛ فإذا حجاب الحفاظ والأدب قد ارتفع ، ويظهر قوم لا يتحلون بشرف الفن أو العمل ، قوم لا ضياع لهم موروثة ، ولا حسب ولا نسب ، ولا حرفة ولا صناعة ، عاطلون ، مستعدون للغمز والشر وبث الكذب والافتراء ، بل هم من ذلك يحيون فى رغد من العيش وسعة من المال . فتبين الملك بواسع عقله وفيض فضله أن لا مناص من أن يعيد سبك هذه الأعضاء بعد اختلاطها ، فرتب لكل مرتبته (١٤) ومنع الناس من أن يشتغلوا بغير الصناعة التى خلقهم الله جل جلاله لها . وشاء الحق تعالى أن يكون على يديه فتح باب للناس لم تصل إليه الخواطر فى العصور الماضية . وأمر كلا من رؤساء الأعضاء الأربعة إذا هم توسموا فى امرئ من أبناء المهنة أمارات الرشد

---

(١) سورة ٦ آية ١١٢ .

والخير أو ألفوه مأموناً على الدين ، أو رأوه ذا بطش وقوة وشجاعة ، أو اختبروه فإذا هو فاضل حافظ فطن لبق ، أن يعرضوا أمره عليه حتى يحكم له برفع درجته .

– ٣ –

« أما ما كبر فى عينيك من عقوبات الملك وأمره بالإسراف فى سفك الدماء مع من يعملون على خلاف رأيه وأمره . »

فاعلم أن القدماء قد قصرت فى هذا الأمر أيديهم ، لأن الناس لم ينسب إليهم العصيان أو ترك الآداب ، وكان كل رجل يشتغل بعيشه وبما يعنيه ، ولم يكن أحد يضمر سوء التدبير أو عصيان الملك . فلما كثر الفساد وخرج الناس عن طاعة الدين والعقل والسلطان ، وأصبحوا ولا زاجر لهم ، بات مجد هذه الدولة ولا حمى له بغير إراقة الدماء . ألم تسمع حديث رجل صالح من أهل ذلك الزمان قال : « ألم نعرف ونسمع من قبل أن العفاف والحياء والقناعة والصداقة المرعية والنصيحة الخالصة والرحم الموصولة كلها فى انعدام الطمع ، وإذ ظهر الطمع فى هذا الزمان ، وزال الأدب عنا ، فصار الأقربون منا أعداء لنا ، وآمن تابعنا (١٥) بأنه متبوع ، وصار الخادم سيداً ، وأصبح العامة كالشيطان أطلق من قيده ، فأهملوا عملهم وانتشروا فى المدن يسرقون ويحتالون ويثيرون الفتنة وأعمال السوء ، حتى بلغ الأمر إلى حد تجاسر العبيد على ساداتهم وقيام الزوجات على أزواجهن .. وأخذ يتحدث على هذا النحو ، ثم قال : فلا قريب ولا حميم ولا النصح ولا السنة ولا الأدب » .

ذلك لتعلم أن ما أمر به الملك من عناية كل امرئ بعمله وألا يعنى بشئون غيره ، هو قوام العالم ودستور أهله ، وهو بمنزلة المطر الذى يحيى

الأرض والشمس التى تهب القوة والرياح التى تنعش الروح . فإذا كان قد أفرط فى تعذيب مثل هؤلاء القوم وسفك دمائهم إفراطاً لا تبدو نهايته فإنا نرى فى هذا البقاء والصلاح . ومهما يكن فإن المستقبل سيكشف لك أن أوتاد الدنيا والدين ستكون بهذا أكثر إحكاماً ، وأنه كلما غلا فى العقوبة كى ينصرف كل عضو من هذه الأعضاء إلى طبقته طاب الثناء عليه .

ثم إن الملك قرر تنصيب « رئيس » على كل طبقة ، ويلى الرئيس « عارض » يعد أهل طبقته ، ويليه « مفتش » أمين يحاسب أهلها على أخطائهم ، ومن بعده « معلم » يلقن كل فرد حرفة أو عملا أو علماً منذ الطفولة ، وذلك حتى يحيوا حياة مطمئنة ؛ وجعل للمعلمين والقضاة والسدنة القائمين بالتذكير والتدريس مرتبات . وأمر مؤدب الأساورة (١٦) أن يعمل على تعليم أبناء المحاربين فى المدن والرساتيق حمل السلاح وآدابه . وذلك حتى يعمل أهل المملكة جميعاً كل فى عمله ، فإن الحكماء الأقدمين قالوا : « القلب الفارغ يبحث عن السوء واليد الفارغة تنزع إلى الإثم » .

— ٤ —

وأما ما قلت من « أن ألسنة الناس قد طالت فى حديثها عن إراقة الملك للدماء ، وانهم يستشعرون الخوف من ذلك » .

فالجواب أن كثيراً من الملوك يُعد القليل من قتلهم للناس إسرافاً فلو قتلوا عشرة أشخاص لكان كثيراً ، وكثير من الملوك لو قتلوا ألف ألف لوجب أن يستزيدوا فى القتل ، خضوعاً منهم لأحداث الزمان والناس. ومع هذا فإن كثيراً من الناس يستأهل القتل ولكن الملك يعفو

عنهم ؛ وهو أكثر رحمة وتسامحاً من بهمن بن اسفنديار الذى أجمعت أمم السلف على رأفته .

وإنى شارح لك كيف أن قلة القتل والعقاب فى ذلك الزمان وكثرتهما فى هذا الزمان ترجع إلى الرعية لا إلى الملك :

إعلم أن العقوبات قد فرضت على ثلاثة أنواع من الجرائم :

الأول : الجريمة بين الفرد والله عز اسمه ، حين يرتد عن الدين ويحدث البدع فى الشريعة .

والثانى : الجريمة بين الفرد والملك ، حين يعصى أو يخون ويغش .

والثالث : الجريمة بين الأفراد ، حين يظلم بعضهم بعضاً .

وفى هذه الأنواع الثلاثة من الجرائم سن الملك تشريعاً جديداً (١٧) أفضل كثيراً من تشريع الأقدمين :

١ — فقد كانوا فى الأزمنة القديمة يقتلون فوراً من يخرج على الدين ؛ فأمر الملك بأن يحبس الأثيم ، وأن يداوم العلماء تلاوة أحكام الشريعة عليه مدة عام ، وينصحوه ويبينوا له الأدلة والبراهين ويزيلوا الشبهة عنه ، فإذا تاب وأناب واستغفر أطلقوه ، وإذا حمله الإصرار والاستكبار على الردة أمروا بقتله .

٢ — كان كل من يعصى الملوك أو يفر من القتال لا يأمن على حياته أبدا . فسن الملك تشريعاً جديداً هو أن يؤخذ من هذه الطائفة بعضهم ويقتل ، لإحداث الرهبة حتى يعتبر به الآخرون ، ويترك البعض أحياء حتى يأملوا فى العفو وهم بين اليأس والرجاء يعيشون . وهذا الرأى أصلح للحكم .

٣ – وكانت السنة فى سالف الأزمان أن يُضرب الضارب ، ويجرح الجارح ، ويمثل بالسارق والزانى . فوضع الملك قانوناً بتوقيع الجراحة والغرامة معاً بصورة يشقى بها الظالم ويفيد منها المظلوم ويطيب نفساً ، فإنه حين تقطع يد السارق لن يفيد من ذلك أحد ، بل سيقع بين الناس نقصان فاحش . وفرض على الغاصب غرامة أربعة أمثال غرامة السارق . وأمر بقطع أنف الزانى ، وألا يقطع منه أى عضو ينقص قوته ؛ وهكذا يلحقه العار ولكنه يعمل(١٨) فلا تنقص القوة العاملة .

وقد أمر الملك بتدوين هذه الأحكام فى الكتب والسنن ثم قال : اعلموا أنا وجدنا الناس ثلاثة أصناف وارتضينا لهم ثلاث سياسات :

الصنف الأول : وهو قلة ، هم الخاصة وأهل الخير . وسياستهم المودة الخالصة .

والصنف الثانى : هم أهل السوء والأشرار وأهل الفتنة . وسياستهم المخافة الصرفة .

والصنف الثالث : وهو كثرة ، هم العامة من كل جنس . وسياستهم الجمع بين الرغبة والرهبة ، فلا أمن يرغبهم ولا رعب يفزعهم .

وقد يلزم العقاب بالإعدام فى جريمة العفو فيها أليق ، كما قد يلزم العفو فى جريمة الإعدام فيها أبين .

وحين رأينا أن لا فائدة للمظلوم فى أحكام وسنن الأولين ، وأن العامة يلحقهم النقصان فى العدد والقوة[١] ، وضعنا هذه الأحكام

(١) وذلك بقتلهم أو بتعجيزهم عن العمل . دارمستتر ص ٥٢٦ (J. A.) .

والسنن حتى يُعمل بها فى عهدنا ومن بعدنا . وقد أمرنا القضاة بأنه إذا عاد المجرمون الذى عينت غراماتهم ، بعد تعزيرهم ، إلى الإجرام ، فعليهم أن يقطعوا منهم الأذن والأنف ، وألا يتعرضوا لعضو آخر .

— ٥ —

وأما ما كتبت عن « البيوتات والمراتب والدرجات التى أجرى فيها الملك رسوماً مستحدثة وبدعاً ، وقولك : إن البيوتات والدرجات مثل الأركان والأوتاد والقواعد والاسطوانات ، وإذا انهار الأساس تداعى المنزل وخرب وانقض » .

فاعلم أن فساد البيوتات والدرجات نوعان :

أولهما أن يهدم القوم البيت (١٩) وأن يجيزوا وضع درجتهم فى غير موضعها . والثانى أن يحط الزمن نفسه ، بغير سعى من أحد ، عزهم وبهاءهم وجلال قدرهم وينشأ منهم عقب لا خير فيه ، يتخذون من أخلاق الأجلاف شعاراً ، ولا يعنون بكريم الخصال ، ولما كانوا يشتغلون بالمهن لكسب المال ، فيذهب ما لهم فى نفوس العامة من وقار ، ولا يعبأون باكتساب الفخار ، ويصاهرون السفلة ومن ليس كفئاً لهم ، وينسلون من هذا التوالد السفلة ، مما يؤدى إلى تهجين المراتب ؛ أمر الملك ، لكى يرفع ويشرف مراتبهم ، أمراً لم أسمع بمثله من أحد من قبل ، وهو أن يميز بين أهل الدرجات والعامة تمييزاً ظاهراً وعاماً ، فى المركب والملبس والمسكن والبستان والنساء والخدم . وبعد ذلك ميز بين أرباب الدرجات أنفسهم فى المدخل والمشرب والمجلس والموقف والملبس والحلية والأبنية ، على قدر درجة كل منهم ، حتى يحافظوا

على بيوتهم ، ويعرفوا أقدارهم فى المجتمع ، فلا يشاركهم أحد العوام فى أسباب الحياة ؛ وحظر النسب بين الجانبين وقال إنى عرفت[1] .
وإن فلانا من قبيلتنا كانت أمه التابوت ، فمنعت كل رجل من أسرة أن يطلب زوجة من عامة الشعب ، وذلك حتى تبقى الأنساب محصورة ؛ وحرمت الميراث على من يتزوج من بنات العامة ، وحرمت شراء العامة لأملاك أبناء البيوتات . وقد استصوب الملك الغلوفى هذا (٢٠) حتى تبقى لكل رجل درجته ومرتبته خاصة ، ثم أمر بتدوين هذا فى الكتب والدواوين .

وأما حكاية التابوت فهى أنه كان فى قديم الأيام ملك عظيم قد غضب على نسائه وقال لهن: لأريكن أنى فى غنى عنكن ، وأمر بإحضار تابوت فصب فيه نطفته ، فجمعت إحدى نسائه النطفة ووضعتها فيها فأنجبت ولداً. فادعوا أن أمه الملكة وأن أباه التابوت[2].

وفى توراة اليهود وإنجيل النصارى أن الناس تكاثروا فى عهد نوح عليه السلام حتى لم يبق من الأرض شبر غير عامر . وجاء بنو لهيم فاختلطوا ببنات أبناء آدم فظهر منهم الجبابرة ، حتى قيض الله الطوفان ليقهرهم [3] .

وعلى هذا فقد احتاط الملك للمحافظة على المراتب بحيث لم يبق بعد هذا تصور لمزيد . ثم أمر بأن كل من يخالف هذه السنة من بعده

---

(١) النص هنا غامض فقد جاء به «من بدانستم بمرئت (؟) وعار است ، وفلان از قبيلة ما ... » ص ١٩ سطر ١٣ من طبعة مينوى .

(٢) هنا : أباه التابوت خلافا لما سبق ، وفقا للنص .

(٣) سفر التكوين ، ٦ .

يستحق أن توضع درجته ، وأن يهدر دمه ، وأن ينفى من الوطن ، وقال : لقد كتبت هذا لملوك الغد ممن قد لا يتاح لهم تمكين قوة الدين ، ليقرءوا كتابي هذا ويأمروا بما فيه .

وعليك أن تعلم علم اليقين أن الملك هو النظام بين الرعية والجيش ، وهو الزينة يوم الزينة ، وهو المفزع والملجأ يوم الخوف من العدو . قال الملك :

« حافظوا على المدن والخزائن من الحادثات ، وحافظوا على اللسان من الريبة ، ولا ترعوا شيئاً رعايتكم مراتب الناس » ثم قال :

« إن وصيتى لرجال الغد أن يسندوا أعمالهم ومصالحهم للعقلاء ولو كانت حقيرة ، ولو كانت كالكنس (٢١) وأما إذا كانت الأعمال شق ترع فليسندوها إلى من هم أكثر عقلا . فان النفع قرين العقل ، والضر والمهانة يسايران الجهل . وقد قال العقلاء إن الجاهل أحول ، يرى المعوج مستقيما والمكسور سليما والكبير صغيراً والصغير كبيراً ، وهو لا يستطيع أن يرى من صور الجهل ما هو أمامه أو خلفه . وهو يعلم عواقب الأمور بعد أن تفسد ويتعذر تداركها . ومن شأنه ألا يشعر بالضرر جزءاً جزءاً حتى يبلغ الضرر درجة لا يمكن بالمعرفة تمييزها »

— ٦ —

وأما ما كتبت تقول : « لم أر فى الدين من الأمور شيئاً أعظم من إجلال وإقرار إجراء الأبدال ، وأن الملك قد أهمل رعاية هذا الأمر » فاعلم أن الملك قد وجد أحكام الدين ضائعة ومختلة ، وأن البدع والمحدثات قد قويت وسيطرت على الناس ، حتى إنه إذا توفى الرجل وترك

مالا ، أخبر الموابذة فجاءوا وقسموا تركته على أصحاب المواريث والأعقاب . ومن مات بلا مال قام الموابذة بتجهيزه وكفالة أعقابه . ولكن الملك حكم بأن يكون أبدال أبناء الملوك من أبناء الملوك ، وأبدال أصحاب الدرجات من أبناء الدرجات . وليس فى هذا ما يستنكف منه أو يستبعد فى الشريعة أو الرأى .

ومعنى الأبدال فى مذهبهم أن الرجل منهم إذا حان أجله ولم يكن له ولد فإذا كانت له زوجة زوجوها من كان من أقاربه أقرب اليه وأولى . وإذا كان لا زوجة له وله بنت زوجوها على هذا النحو (٢٢) وإذا لم يكن له زوجة أو بنت اشتروا من ماله جارية وزوجوها كذلك من أقرب أقربائه[1] .

---

(١) قال البيرونى وهو يتحدث عن « زواج المقت عند العرب » :

« ولا يبعد عن اليهود فقد فرض عليهم أن ينكح الرجل امرأة أخيه إذا مات ولم يعقب ويولد لأخيه المتوفى نسلا منسوباً إليه دونه لئلا يبيد من العالم ذكره ويسمون فاعل ذلك بالعبرية يبم . وكذلك المجوس فنى كتاب توسر هربذ الهرابذة إلى بدشوار كر شاه ، جوابا على ما تجناه على أردشير بن بابك ، أمر الأبدال عند الفرس إذا مات الرجل ولم يخلف ولدا أن ينظروا فإن كانت له امرأة زوجوها من أقرب عصبيته باسمه وإن لم تكن له امرأة فابنة المتوفى أو ذات قرابته فإن لم توجد خطبوا على العصبية من مال المتوفى فما كان من ولد فهو له . ومن أغفل ذلك ولم يفعل فقد قتل مالا يحصى من الأنفس لأنه قطع نسل المتوفى وذكره إلى آخر الدهر » .

ـــ البيرونى ، الهند ، ص ٥٣ .

وقال دارمستتر (ص ٥٢٩ J. A.) إن الروايات تؤيد هذه الفقرة ، فهى تقول إنه إذا مات الزوج دون أن ينجب أولاداً فإن نصف الأولاد الذين تنجبهم أرملته من زواجها الثانى ينسبون إليه ، والزوجة نفسها تتبعه فى العالم الآخر ويسمونها

وينسب الولد الذى يولد من هذا الزواج إلى المتوفى صاحب التركة . ويقتل من يتصرف على غير هذا النحو .

وكانوا يقولون: ينبغى أن يبقى نسل الميت حتى آخر الزمان [1]. وكذلك جاء فى توراة اليهود أن الأخ يتزوج امرأة أخيه المتوفى ليبقى نسل أخيه، والنصارى يحرمون ذلك .

- ٧ -

وأما ما ذكرت من أن « الملك قد انتزع النيران من بيوتها وأطفأها وأبطلها، ولم يكن لأحد مثل هذه الجرأة على الدين » .

فاعلم أن الأمر ليس بهذه الشناعة وأنه قد نقل اليك محرفاً. ذلك أن ملوك الطوائف ، بعد دارا ، قد اتخذ كل منهم لنفسه بيت نار ؛ وهذه بدعة ابتدعوها بغير رخصة من الملوك الأقدمين . فأبطل الملك البدعة، ومحا نيرانهم [2]،

= چكر زن» أى الزوجة الخادمة . وإذا مات الرجل قبل أن يتزوج فإن على أقاربه أن يزوجوا باسمه زوجة ، وعليهم مهرها وجهازها ، ونصف الأولاد الذين تنجبهم من زواجها ينسب إلى الميت وهى تلحق به فى الآخرة ، ويسمونها « سترزن » أى الزوجة بالتبنى . أنظر West فى Pahlevi Texts ج ١ ص ١٤٣ ؛ وانظر Darmesteter فى Zend-Avesta ج ٣ ص ١٧٤ .

(١) جاء فى يسنا ٦٢ - ٥ :

من لم يترك من بعده أولادا ذكوراً لا يمر على الصراط إلى الجنة ، ويقول له بعض ماعمل من الصالحات والملائكة : « أتركت فى دنياك خليفة ؟ »

واليوم يطلقون فى إيران على الولد بالتبنى « آخرت اوغلو » أو « ابن آخرت » . دارمستتر ص ٥٣٠ (J.A.) .

(٢) النص الفارسى يقول « نانها » ولعلها نارها وعلى هذا ترجمتها .

ثم أعاد النـــار (المقدسة) إلى مواضعها الأولى [1] .

(١) امتاز ثلاثة بيوت للنار من بين المعابد المنبثة فى الدولة كلها، فكانت تتمتع بتقديس خاص ، وهى البيوت الثلاثة التى حفظت فيها النيران الثلاث المسماة :

آذر فربغ ، آذر گشناسپ ، وآذر برزين مهر .

ويروى البندهشن (الفصل ١٧ ، ٤—٥ ، West فى (Pahlavi Texts) خرافة قديمة تقول إن جماعـــة من الناس من أيام الملك الخرافى تخموروب انتقلوا من اقليم خونيرس إلى ستة أقاليم أخرى لم يكن فى طاقة البشر بلوغهـــا ، وذلك على ظهر الثور سرسائوغ . وقد حدث ليلة ، فى وسط المحيط ، أن سقط ثلاث نيران كانت متقدة فوق ظهر الثور ، أسقطتها عن ظهره الرياح فوقعت فى الماء ؛ ولكنها ، كأنهـــا أرواح حية ، نبتت من جديد حيث كانت فوق ظهر الثور فأنارت الدنيا . وبعد ذلك جاء يم (جم) ، خليفة الملك تخموروب ، فبنى لإحدى هذه النيران الثلاث : نار فربغ ، معبداً فوق جبل خور همند فى خوارزم .

ولا ندرى إلى أى زمان يرقى تاريخ هذه النيران الثلاث .

ويميـــل هوفمان إلى القول بوجود صلة بين النار الأبدية بمدينة اســـال بولاية استائوين ، وهى النار التى احتفل عندها بتنصيب أرشاك مؤسس الأسرة الاشكانية ملكاً وبين نار برزين مهر التى كان بيتها قريباً من هذه الجهة فى عهد الدولة الساسانية .

وفى إحدى روايات رجال الدين المزدى أن النيران الثلاث كانت متصلة بالطبقات الاجتماعية الثلاث التى أسسها أبناء زردشت الثلاثة ، كما تقول هذه الرواية . فآذر فربغ كانت نار رجال الدين ، بينما كانت آذر گشناسپ نار رجال الحرب ، وآذر برزين مهر نار الزراع .

وأما وضع النيران الثلاث فى المواضع التى كانت بيوتها فيها أيام الدولة الساسانية فيرجعه القصص إلى الملوك الخرافيين قبل الأكينيين .

فآذر فربغ ، حسب رواية البندهش الهندى ، تقع فوق جبل روشن ردشن فى كابلستان فى مقاطعة كابل . وأما رواية البندهشن الإيرانى فتقرأ على وجه آخر ويرى جاكسون أنها على جبل خواروند فى مقاطعة كار ويقول إن البعض يقصد مدينة كاريان فى إقليم فارس ، فى منتصف الطريق بين سيراف ودارابجرد حيث لا تزال خرائب =

بعد هذا نقول « إن الملك أمر بنصب الفيلة على باب القصر كما أقيمت الأبقار والحمير والأشجار » .

= معبد قديم ، ويظهر أن النار المقدسة هنا كانت تتقد من عين نفط . وأما المسعودى فيرى أن هذا البيت كان يسمى آذر جوى ، ويبدو أن هذا هو البيت نفسه الذى يشير إليه البيرونى باسم آذر خوره . ويذهب هرزفيلد إلى أن بيت نار فربغ كان مقـاماً فى نيسابور . ويذهب كريستنسن إلى أنه كان فى كاريان .

أما آذر گشناسپ ، النار الملكية ، فكان معبدها فى الشمال فى شيز (كنجك) بآذر بيجان . وكان الملوك الساسانيون يحجون إلى هذا البيت وقت الأزمات . وكانوا يهبونه حينئذ هبات سخية من الذهب والأموال والأراضى والعبيد .

ويصف المسعودى غرائب هذا البيت فيقول « وفى الشيز من بلاد آذربيجان آثار عجيبة من البنيان والصور بأنواع الأصباغ العجيبة من صور الأفلاك والنجوم والعالم وما فيه من بر وبحر وعامر ونبات وحيوان وغير ذلك من العجائب ولهم فيها بيت نار معظم عند سائر طبقات الفرس يقال له آذرخوش ، وآذر أحد أسماء النـار بالفارسية والخوش الطيب . وكان الملك من ملوك الفرس إذا ملك زاره ماشياً تعظيما له ، وتنذر له النذور وتحمل إليه التحف والأموال وغير ذلك من البلاد كالماهات وأرض الجبال » .

وكانت هذه النار رمزاً للوحدة الملكية والدينية ، شعار الملكية الساسانية ، التى قويت بتحالفها مع رجال الدين ، على خلاف الملكية الأشكانية التى كان لكل سترپ فيها بيت نار خاص به .

ويرى كريستنسن أن كتاب تنسر يعبر عن تقليـد تاريخى فى هذا ، وأما قول إن النار الملكية الموحدة عند الساسانيين كانت إعادة لما كان متبعاً منذ عهد دارا فبناه افتراض .

والبيت الثالث هو لآذر برزين مهر وهو للزراع ، ومقامه فى شرق الدولة فى جبال ريوند شمال شرق نيسابور .

أنظر كريستنسن « الدولة الساسانية » ص ١٦٤ وما بعدها . الترجمة العربية ص ١٤٧ وما بعدها .

إنه قد أمر بهذا كله عملا بالدين حتى يلقى جزاءه كل من يمارس السحر أو يقطع الطريق أو يؤول الدين تأويلا محرماً . وقد حاول الملك أن يأخذ الأمور باللين والمداراة فعرف أنه لا ييسر الصعب ويذلله إلا الرياضات الصعبة ، وأن المرهم لا يكون ناجعاً مفيداً للجراحات الخطيرة ، إذ ليس لها إلا الشق أو الكى . (٢٣) ونعلم أن كثيراً من أهل الرجولة الحقة كانوا يطلبون البطولة عن هذا الطريق وأحرزوها ، وليس كل إنسان قادراً على ذلك الدواء لضعفه ، كالأم الشفيقة على ابنها ، حبيب قلبها وقرين روحها ، حين تنــادى له الطبيب فيأمر له بمر الدواء وحارق الكي ومنكر الجرح ، فإن قلبها يجزع ويضطرب وذلك لضعفها وخور عزيمتها ، أما الولد فإنه بهذا تشفى علته وتعود اليه صحته وحينئذ يحل الهدوء والسكينة بصدر الأم الضعيفة ، فتستحسن عمل الطبيب وتثنى عليه لسلامة ولدها .

والمقصود بالفيل هو أن يلقى قاطع الطريق وصاحب البدعة تحت أرجل الفيل .

وأما البقرة فهى وعاء على صورة بقرة يذيبون فيه الرصاص ويلقى فيه المجرمون .

وأما الحمار فهو من حديد له ثلاث أرجل ويعلق به المجرم من رجله حتى يهلك .

وأما الشجرة ففيها أربعة مسامير منصوبة أطرافها إلى أعلى . وهذه عقوبات لا يلقاها غير السحرة وقطاع الطرق .

وأما ما ذكرت من أن « الملك منع الناس من البذخ والاسراف » ، فاعلم أنه جعل الناس ثلاثة أنواع ، وقصد إلى إظهار الفوارق بينهم حتى ينم على كل مظهره.

فميز الأشراف عن المحترفة والمهنة باللباس والمركب والزينة ، كما ميز أزواجهم بثياب الحرير والقصور العظيمة والسراويل وغطاء الرأس والصيد وبكل مزايا الأشراف .

وميز رجال الجيش لأن وظيفتهم القتال ، وجعلهم أعلى درجة من تلك الجماعات كلها ، ذلك أنهم فى كل وقت ، هم وأموالهم (٢٤) وأتباعهم ، فداء للمهنة دفاعاً عن مصلحتهم . فهم يشتغلون بحرب أعداء الوطن بينما المهنة يحيون فى بيوتهم راغدين مرفهين آمنين مطمئنين مع نسائهم وأولادهم

وألزم المهنة أن يؤدوا لرجال الجيش التحية وأن يسجدوا لهم .

ثم إن على رجال الجيش أن يحترموا أهل الدرجات . وعليهم أنفسهم ، على مالهم من مكانة ، أن يحترموا بعضهم بعضا وأن يحتشموا . إذ لو ألقى الحبل للناس على الغارب لاتبع كل منهم هواه ، وليس للهوى نهـاية ولا غاية ، فيميلون إلى اتخـاذ ما لا يوفى مالهم به ويسرعون إلى الفقر ويقعون فى الحاجة . وإذا افتقرت الرعية خلت خزانة الملك ولم يجد نفقة المقاتلة ، ويضيع منه الملك .

وقد منع الملك الأمراء من التبذير والإتلاف حتى لا يحتاجوا

للمهنة ، وقسم معيشتهم بحيث إذا كان أحدهم يملك ألف خزانة وكان لغيره مال قليل عاش كل منهما بنسبة معينة .

وكان يزوج بنات الملوك لأصحاب المصالح الحافظين لدينهم ، حتى يتهيأ لكل منهم الصلاح والعفة .

وقصر الزواج على واحدة أو اثنتين .

وأنكر كثرة الولد وكان يقول إن كثرة الولد للسفلة أما الملوك والأشراف فيباهون بقلة الولد .

بغاث الطير أكثرها فراخاً　　وأم الصقر مقلات نزور

— ١٠ —

وأما كتابتك أن الملك « قد نصب على أهل المملكة الجواسيس والمنهين ، وأن الناس منهم فى رعب وحيرة » .

فاعلم أنه لا خوف على الأبرياء والمخلصين من هذا (٢٥) ، فإن عيون الملك والمنهين اليه لا يعينون إلا إذا كانوا من الصالحين الأتقياء الأمناء العلماء المتدينين الزاهدين، ليصدر ما يعرضون (على الملك) عن تثبت ويقين . فإذا كنت مخلصاً ومطيعاً ورفعوا هـذا بالحق عنك للملك فيجب أن تزداد سعادتك لأن إخلاصك سيعرف للملك فتزداد شفقته عليك . وقد فصل الملك ذلك فى وصيته التى قال فيها :

« إن جهل الملك وغفلته عن أحوال الناس باب من أبواب الفساد ، ويجب أن يتنبه الملك فلا يستمع لمن لا يعتمد عليه ولا يوثق به وعليه ألا يعمل عملى وألا يسير سيرى ولا يفكر فيه ولا يقول :

إنى أقتدى بأردشير . ذلك أنى حكمت عهداً لا أمن فيه ، وكان الدين ملوثه الفساد ، والملك غير مستقيم، ولم يذكر شئ عن الناس أخيارهم وأشرارهم ، فاصطفيت المعتمدين والأمناء والصالحين بغير تجربة ولم أراجع حكمى عليهم ، ويجوز أن يأتى بعدى قوم أفضل منهم . ولا يجوز أن يفسح للأشرار المجال عن طريق التجسس ليرفعوا الأخبار للملك . ولو سار الملوك على هذا النهج ، والعياذ بالله لما أمنت الرعية ولا استراحت (٢٦) ، ولما استطاع الملوك أن يتمتعوا ويثقوا بطاعة الناس وخدمتهم ؛ وحين يصل أمر الملك إلى هذا الحد يحدث الانقلاب سريعاً ويشهر الملك بفتور الرأى والعجز » .

وإذاً فلا يظنن الأمير أن هذا الملك يقدم على عمل جزافاً أو بغير حجة .

— ١١ —

ثم تقول : « إن الملك استولى على مال الأغنياء والتجار » .

إذا أطلقوا على أنفسهم لقب « الغنى » ، ولم يكونوا كذلك ، فإنه يأمر بإبطال هذا اللقب . ومن دلائل الغنى ألا يكون نتيجة إكراه أو غصب ، وإنما يكون عن طريق حلال وعن رضا ، وأن يؤدى الغنى خدمة ظاهرة . فإذا ما أراد أخذ المال كرهاً فهو ليس بغنى ، بل هو لئيم مجرم، ذلك أنه كسب الثراء بالربا واللؤم والدناءة ، ولم يحصل عليه بطريق مشروع .

هذا هو معنى أن الملك يستعين بأفضال أهل الفضل من الناس عامة ، ولهذا أصل فى الدين ، وله فى الرأى وجه واضح .

وسؤال آخر « ماذا يمنع الملك من تعيين ولى عهد من بعده وتسميته ؟ » .

فاعلم أن الملك قد فكر مليـاً فى فساد من قد يسميه من بعده . فإنه إذ يعينه ويسميه سيجعله مناط تفكير الناس جميعاً .

فإذا قرب منه قليلا رجلا غيره تَنفّس على من قرّب .

ثم ألا يقول الملك حين يرى ولى عهده إن هذا الرجل ينتظر ويترصد موتى؟ ، وحينئذ يخمد ما فى القلب من الود والمحبة والشفقة . وإذ كان صلاح الملك والرعية جميعاً فى غير هذا الرأى فالأولى أن يظل ولى العهد مستوراً .

ثم إنه من الجـائز إذا سمى ولى العهد أن لا يخـلو الأعداء من المكر والكيد وأن يثير الفتنة المردة الشياطين وأعين الحساد من الجن(٢٧) والإنس .

ثم اعلم علم اليقين أن من ترمقه عيون الناس مبكراً يسلك موارد الهلكة لغروره وطيشه . ومن ملىء غروراً عصا فى الحق ، ومن عصا فى الحق أسرع إلى الحمق ، وهو إذا غضب اعتدى فإذا اعتـدى حمل الناس على الانتقام منه حتى يهلك ويهلك بسـببه كثيرون .

وعلى الملك أن يمسك بالطـاعة زمام الملك ، وأن يكون قد

ذاق خلاف ما يهوى ، وذاق مرارة الحرمان، وأن يكون قد سمع القدح والتوبيخ من النساء والأطفال والخدم والسادة والأصدقاء والأعداء[1].

وإنى قاص عليك قصة أعرف أنك لم تسمعها من قبل . ولكنى أخاف بقاء قصتى من بعدنا ، فتكون عاراً لنا ولتفكيرنا ، ومع هذا فإنى ذاكرها لأزيدك علماً .

إعلم أنهم يسموننا معشر قريش قريش[2] . وليس لنا من خلة

---

(١) جاء فى عهد اردشير :

" واعلموا أن ليس ملك إلا وهو كثير الذكر لمن يلى الأمر بعده ، ومن فساد أمر الملك نشر ذكره ولاة العهود فإن فى ذلك ضروباً من الضرر وإن ذلك دخول عداوة بين الملك وولى عهده ، لأنه تطمح عينه إلى الملك ويصير له أحباب وأخدان يمنونه ذلك ويستبطئون موت الملك . ثم إن الملك يستوحش منه ، وتنساق الأمور إلى هلاك أحدهما . ولكن لينظر الوالى منكم لله تعالى ثم لنفسه ثم للرعية وينتخب ولياً للعهد من بعده ولا يعلمه ذلك ولا أحدا من الخلق قريباً كان أو بعيداً ، ثم يكتب اسمه فى أربع صحائف ويختمها بخاتمه ويضعها عند أربعة نفر من أعيان أهل المملكة ، ثم لا يكون منه فى سره وعلانيته أمر يستدل به على ولى عهده من هؤلاء فى إدناء وتقريب يعرف به ولا فى إقصاء وإعراض يستراب له ، وليتق ذلك فى اللحظة والكلمة فإذا هلك الملك جمعت تلك الصحائف إلى النسخة التى تكون فى خزانة الملك فتفض جميعاً ، ثم ينوه حينئذ باسم ذلك الرجل فيلق الملك إذا لقيه بحداثة عهد بحال السوقة ويلبسه إذا لبسه ببصر السوقة وسمعها . فإن فى معرفته بحاله قبل إفضاء الملك إليه سكراً تحدثه عنده ولاية العهد ثم يلقاه الملك فيزيده سكراً إلى سكره فيعمى ويصم . هذا مع مالا بد أن يلقاه أيام ولاية العهد من حيل العتاة وبغى الكذابين ورقية النمامين وإيغار صدره وإفساد قلبه على كثير من رعيته وخواص دولته وليس ذلك بمحمود ولا صالح ".

شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة المجلد ٤ ص ١٥٧ . طبعة الحلبى . مصر .

(٢) ذهب مينوى ص ٢٧ إلى أنه قد يقصد قريش العجم . وفى رأينا أن العبارة التى أوردها قد يقصد بها خلاصة قريش وصفوتها .

أو خصلة فينا أفضل وأكرم وأعظم من بذلنا جميعاً ، فى خدمة الملوك الخضوع والخشوع والذلة . فنحن نؤثر الائتمار بأمرهم والطاعة والإخلاص والوفاء لهم ، وقد استقام الأمر لنا بهذه الخصلة ، وبها علونا على كل الأمم ، ومن جلها سمونا (٢٨) « الخاضعين »[1] فى الدين والكتب. ومع مالنا من مناقب فإن أفضل الأسماء وأحبها إلينا ، عند الأولين منا والآخرين ، هو هذا الاسم ؛ حتى لقد أصبح مذكراً لنا وواعظاً ، وبه بقيت لنا العزة والمكرمة والفخر والمرتبة . فإن الذل والمهانة والهلاك فى التكبر والتعاظم والتجبر. على هذا كان مذهب الأولين فينا والآخرين فلم يروا من الملوك غير الخير والطيبة ، كذلك بادلهم الملوك الطاعة والولاء . فلا جرم أن قرت عيوننا واسترحنا وحسدنا أهل الدنيا . وقد أخضعنا الأقاليم السبعة حتى كان الرجل منا إذا طاف فيها لا يجرؤ أحد أن يلقى عليه نظرة ازدراء وذلك من خشية ملوكنا . كنا على هذا الحال حتى عهد دارا بن جهر زاد الذى لم يكن ملك فى الدنيا أعلم منه ولا أحكم ولا أحسن سيرة ولا أعز أو أنفذ منه حكماً ، وقد خضع له جميع الملوك من الصين حتى مغارب الروم وقدموا له الخراج وأرسلوا الهدايا ، وكان يلقب : بتغولشاه .

قيل وكان هذا سبب كل البلاء والسوء الذى لحقه هو وابنه دارا كما لحق أهل زمانهما ويلحقنا حتى اليوم :

---

(١) ترجمة عربية للكلمة الفارسية ايريا التى تطلق على الإيرانيين . والكلمة معناها الرجل المتدين المطيع الخاضع ، ويتمثل هذا المعنى كاملا فى « رب النوع » آرميتى ، الذى يقابله شيطان اسمه ترومیتى وهو مظهر للاستهتار والعصيان والعدوان وقلة الحياء .

مجتبى ص ٦١ ، حيث رجع إلى زند اوستا ، ج ١ ص ٢٤ لدارمستتر .

كان تغولشاه حريصاً على الدنيا وكان يحب ولده حباً غلب عليه من فرط حبه للدنيا ، فإنه لم يرزق سواه ، وقد أدرك أنه إذا خلع عليه اسمه ومنحه التاج والسرير يبقى فى عداد الأحياء بعد موته ويخلد ذكره مع اسمه . كان يتفاءل كل يوم بحركات ولده وسكناته ، ويتصور جلاله فى نمائه ، فقد قيل : « إذا ترعرع الولد تزعزع الوالد » ، (٢٩) ولم يحسب أن :

فى الغيب مايرجع الأوهام ناكصة — والمرء مختدع بالزجر والفال
يخال بالفأل باب الغيب منفتحاً — والغيب مستوثق منه بأقفال

فلما انتقل الولد من عهد المهد والقماط إلى حد التخت والبساط ، فتح وهيأ له أبواب المكرمة وأسباب المرحمة الأبوية ؛ ثم إنه اهتم بتربيته وإعداده واختيار خدمه ، وعين خلفاءه ، حتى إذا فتح عينيه رأى نفسه صاحب تاج وسرير ، فخيل إليه أن الملك ليس من صنع الله بل هو خاصية صفة ذاته ، فلم يعبأ بالاستنارة برأى الأكفياء والدهاة ، ولم يقدر ما كان يحتاج له فى تلكم الأيام بل قال لنفسه :

أتانى الملك أباً عن أب ، والشمس والسنبل والطير والسمك كلها لى . لو أن القدر تعالى على فانى أمزقه إرباً ، ولو أن القضاء من علاء الفضاء حدجنى بنظره فإنى سامل عينيه ؛

وكان من أبناء خدمه غلام اسمه بيرى ، أنس به فصارا صديقين أليفين فى المؤاكلة والمشاربة ، وشربا معاً من كأس الغرور ، وأصبحا طبعاً واحداً وجبلة واحدة .

وفوض دارا ، لصغر عقله، إلى هذا الصبي الذى لم يؤت عقلا غريزياً ولا عزة ، منصب الكتابة . ومنذ ذلك الوقت والفرس يضربون المثل فى الشؤم بهذا الصبي .

وكان لتغولشاه كاتب محنك محكك ، كان فى خدمته مجرباً ومقرباً ، ذا عقـل وحصافة ، وديانة وأمانة ، حسن الصورة ممدوح السيرة ، محمود(٣٠)الخلق مسعود الخلق ، اسمه رستين ، كما يقال :

لقد طبن فى الدنيا مناقبه التى بأمثالهـا كتب الأنام تؤرخ

فناقضه بيرى مرتبته ، ومنّى قلبه بدرجته ؛ وقبل أن يطلب بلوغ هذه المنزلة ، استعجل وصال وجال ، ورفع على كتفه قناة الطعن والتعنت ، وجرد سيف الانتقام على هذا المقام ، وأقصى الرجل أمام الأكابر والرؤساء عن الكتاب والخطاب ؛ وكان الرجل نائباً وخليفة لتغولشاه ، فلما رأى الأمر قد جاوز الحد ، وأن بيرى ، لصغره ، لا يقر ولا يستطيع الصبر أو التمهل حتى يصل إلى مرتبته .

الكلب أحسن حالة وهو النهاية فى الخساسة
ممن ينازع فى الريا سة قبل إبان الرياسة

فذهب رستين ذات يوم إلى الملك ، وطلب المقابلة الخاصة ، وكانوا لا يستطيعون التحدث إلى الملوك صراحة فى ذلك الزمان ، بل كانوا يلفقون الأمثال والحكايات ويروونها ، فيسأل الملك فى أثناء القصص ويبحث الأمر مع الحاكى .

قال رستين :

أبقى الله الملك حتى آخر الزمان مقروناً بالسعادة . سمعت أنه كان

فى بعض الجزائر مدينة ذات خصب وأمن ، وكان عليها ملك ورث الملك عن أجداده ، وكان بجوار هذه المدينة جماعة من القردة ، قد سكنت إلى مقامها ، وكانت تقضى أيامها فى خفض عيش وسعة رزق وفراغ خاطر(٣١) ؛ وكان عليها ملك مطاع ، تستمع إلى وصاياه ، وتعطف قلوبها على هدايته ، ولا تتنفس بغير استشارته . وذات يوم طلب ملك القردة إلى قردته أن تتجمع ، فلما التفت حوله قال : إن علينا أن نهاجر من جوار هذه المدينة وأن نسير إلى موضع آخر :

أرى تحت الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام

فقالت القردة : إن عليك أن تبين لنا سبب هذه الحادثة وموجب هذه الواقعة وما وجه الصلاح فى هذا التوجيه حتى يجتمع الرأى ، فإذا كان فيه النجح والخير عملنا بما تشير به .

قال : إنى عازم على ألا أفضى إليكم بهذا الرأى ، فان هذا المنزل قد طاب لكم ، فهو فسيح الأرجاء ، فيه الملاذ والنعم السابغة ، وأعرف أنى لو أطلعتكم على ما أعلم فانكم لن تروا له وزناً أو محلا ؛ ولكن بما لى عليكم من فضل الرأى وغلبة العقل اقبلوا نصحى والتزموا اتباعى حتى نذهب إلى بلد آخر ، وقد قال العقلاء :

وما الحزم إلا أن تخف ركائبى إذا مولدى لم أستطب منه موردى

ومهما يكن من شىء فإن الهجرة والجلاء ، من الجفاء . والبلاء من سنن الأنبياء المرسلين . فإن العاقل إذا رأى تباشير الشر ، ومناكير الضر ، فى نفسه وفى أتباعه وأهله وأشياعه فلم يعبأ بها وآثر هم المولد

والموطن (1) على سعادة عمره كله ، نسب إلى الجهل والكسل وجر على نفسه قضاء الأجل .(٣٢)

فما كوفة أمى ولا بصرة أبى ولا أنا يثنينى عن الرحلة الكسل
وفى العمر لذات وللموت راحة وفى الأرض منأى للكريم ومرتحل

فإن كريم العنصر شريف الجوهر يتحلى بفضائل الذات وهناء اللذات فى كل منزل ومستقر يأوى إليه ، فهو إذا سقط فى اليم مثلا سبحت معه السماحة والنجاح ، ولو خص بجلال المناقب والأرزاق والمراتب أناس دون غيرهم لما قيل :

لو حاز فخراً مقام المرء فى وطن ما جازت الشمس يوماً بيتها الأسدا

قال القردة : إن الملك من شدة الرأفة بنا وفرط العاطفة علينا ، نحن رعاياه ، قد أكد التمهيد لقبول هذه النصيحة ، وما كان له أن يبالغ هكذا لولا ما يرى من أن أمراً جللا وجرماً وخيم العاقبة من عاديات الزمان سيحل بنا ، ولكن قلوبنا لن يهدأ خفقانها إلا إذا نبئنا بما جرى ؛ فإذا وقفنا على هذا السر فليس لنا غير الانقياد لأمره واجتناب نهيه ، وستزداد قوة قلوبنا وتقوى حركتنا بعظيم شفقته وظهور رحمته.

قال ملك القردة : اعلموا أنى علوت بالأمس شجرة تشرف على حدود هذه المدينة وكنت أنظر سراى ملكها فرأيت شاة من شياه ابن الملك تنطح خادمة له . وقد قال العلماء : فروا من جوار المتعادين ، ونهوا عنه ، وأنا لا أريد مخالفة قولهم ولا أن اتخذ كلامهم لغواً .

---

(1) أنظر حاشية مجتبى ص ٦٢ لتفسير كلمة زاد وبود.

فابتسم القردة جميعاً متعجبين من قوله . وبعد التبرم والتجهم قالوا (٣٣) له فى تهكم وتجهم :

إذا لاح برق من لوى الجزع خافق رجعت وجفن العين ملآن دافق

أنت ملكنا وقدوتنا منذ سنين عدة ، وقد كنت أحكم القوم وصاحب الأمر والرأى والتجربة ، فهلا حدثتنا عما علينا من نطح الشاة لجارية الملك ؟

قال ملك القردة إن فيه هلاككم أولا وهو أمر يسير وليس بخطير إذ يبدأ بكم ، ثم إن فيه هلاك أهل هذه المدينة وخرابها وقتل ملكها .

فازداد عجب القردة وعظمت حيرتهم فقالوا :

إنا لم نعهد فيك من قبل هذه الصفة ، إن عين سوء قد أصابتك ، فبدت غشاوة على عقلك ، فلتعن بنفسك عناية صادقة حتى نبحث عن الأطباء ليعالجوا ما بك من سوداء لتذهب علتك ولا تحرم من ملكك .

فقال ملك القردة :

صدق الحكماء حين قالوا : من عدم العقل لم يزده السلطان عزاً ، ومن عدم القناعة لم يزده المال غنى ، ومن عدم الإيمان لم تزده الرواية فقهاً . أولى بى أن أذهب إلى طبيبى ما دام هذا رأيكم فى وأن أبعد عنكم معاناة علتى .

وفى التو فارقهم وطلق ملكه .

(٣٤) ولم يمض على هذا الحادث زمن طويل حتى كانت تلك الجارية

تجرى خارج السراى وبيديها قارورة زيت وقبس من نار، فاتجهت الشاة كعادتها نحوها وهاجمتها فألقت عليها الزيت والنار فالتقيا بصوفها فأخذت تجرى من باب لآخر من شدة النار، وتنقل من سراى إلى سراى حتى دخلت سراى كبير من أركان الدولة وأعيان المدينة ، وشاء القضاء أن يكون الرجل مريضاً ، فجرت الشاة عليه وأحرقته، كما أحرقت كثيراً من العظماء .

وقصوا الحادث لملك المدينة فأمر الأطباء بإحضار بلسم الحروق فاتفقوا أن أنسب بلسم لها يتخذ من مرارة القرد ، فقيل لهم هذا سهل ميسور ، وأمر الملك رجلا بالركوب لاصطياد قرد والاتيان بمرارته ، وصدع الصياد بالأمر فاصطاد قرداً حيلة وغدراً وبلغ مراده . فتجمع القردة وقتلوا رسول الملك وقطعوه إرباً إرباً ورموه . وعرف الملك ما جرى فركب لمحاربة القردة وقتل منها كثيراً ، ثم عفا عنها .

وجاء قرد إلى رجل من حاشية الملك فسلم وقال : لقد عشنا بجواركم سنين عدداً ، فلا أصابنا منكم شر ولا لحق بكم منا ضر ، كل منا يسعى لرزقه المقدور وستره المستور، فأى رأى بعثكم على إهلاكنا واستئصالنا ، حتى كأن عين المروءة فيكم قد أصابها الشوك بالغم والعدوان، (٣٥) فأهملتم حقوق الجوار ، وترخصتم فى الاستهتار بالأمانة، ولم تبالوا بالملامة فى الدنيا أو الغرامة فى الأخرى :

يا جائرين علينا فى حكومتهم والجور أعظم مايؤتى ويرتكب

فروى الرجل للقرد قصة الشاة والجارية والنار والحرق ، وعلاج الطبيب ، ومقتل الصياد وانتقام الملك . فدمعت عينا القرد وقال :

بحق ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام : « الاوإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة » ،

أمرتكموا أمرى بمنعرج اللوى　　　فلم تستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

أيها الشاب لقد حملنا سيل القضاء قبلكم إلى بحر الفناء كي يوردكم القدر كالقش نفس المصير .

فقال الرجل للقرد : إنها كبيرة دعواك ، هل لك عليها حجة و برهان وبينة وسلطان ؟ فقال القرد :

نعم ، فقد كان لنا ملك ذو عقل وكياسة وفضل ودراسة ، أحاط خبراً بغرائب الدنيا وعجائب السماء ، وقد أنجاه رأيه الرصين من آلاف المكامن ، ولم يقع فى شباك الزمان ولا خدعته الشعبذة ، له خاطر لماح ، وبصيرة نافذة :

(٣٦) فالدين والملك والأقوام قاطبة　　　راضون عن سعيه والله والله

وذات يوم اعتلى شجرة على حدود هذه المدينة ليتفرج[1] ... وهكذا قص قصة الشاة والجارية وما جرى بينهما وبين الملك ثم قال : ولأنا عصيناه ولم نستمع لنصحه ، ولكفر قلوبنا به آثر ترك ملكه على

---

(١) يقول دارمستتر فى حواشيه ص ٥٣٦ إن قصة القردة من قصص بنج تنترا الأصل السنسكريتى لكليلة ودمنة ، ولكن القصة لم ترد فى الترجمة العربية لابن المقفع ولكنه ذكرها فى ترجمته لكتاب تنسر ، وهى إضافة منه على النص .

ويقول مينوى فى حواشيه ص ٦٢ إن القصة واردة فى سندباد نامه الفارسى ، بصورة مختصرة ومع بعض الاختلافات . حواشى مينوى ص ٦٢ . وانظر القصة فى سندباد نامه ص ٨٠ - ٨٤ ، نشر أحمد آتش ، استنبول سنة ١٩٤٨ .

التشبث بهذا المتاع الذى لم يكن مستعداً أن يجاهد فى سبيله[1] ، فاعتزلنا ولا محالة . وقد تحقق قوله : بزوال نوبتنا تزول دولتكم .
واستمع الرجل إلى هذه الحكاية وقد تملكه العجب ؛ فلما بلغ المدينة رواها ، فحدث إرجاف أسماع أفواه العامة والخاصة وأسماعهم حتى بلغت الملك فأمر بمناداة أول من حكاها ، وكان من عظماء المدينة ، له عصبة من الأقرباء والإخوان ، فلما جيء به شاء القدر أن يتسرب دخان الغضب من رأس الملك حتى يصل به إلى العيوق[2] ، فأمر بقتله فى الحال .

فلما عرف أهله تجمعوا مع عامة أهل المدينة بقصر الملك وثارت الفتنة ولم يكن من سبيل إلى إخمادها وانتهت بمقتل الملك ، وتفرق الناس وخربت المدينة .

فلما بلغ رستين الكاتب هذا الحد من القصة إلى تغولشاه سأله هذا عما يرمى إليه بقصته وعن حاجته منها ، فعرض حاله مع بيرى الذى اتخذه داراكاتباً ، وقال : إذا شق الأمر على الملك فإن المصلحة أن يعزلنى حتى تنام الفتنة . فقال الملك : صه ؛ ولا تفش هذا السر أبداً فلسوف أعالج هذا الأمر (٣٧).ولم يمض زمان حتى هلك بيرى .

قيل إن تغولشاه أمر بإعطائه السم فى بيت أحد قادة الجيش . وحين لم يبق فى قفيز عمر تغولشاه بقية ، وتحلل تركيب طبيعته إلى الطين ، اختطفه صقر الأجل مع عظيم حرصه على ملكه ،

---

(١) النص هنا غامض حيث يقول : ومنا نج (؟) او كه برك جنين مرك فبود ، بترك ملك كفت . وقد ذهبنا إلى تفسير منانج بمالك . مينوى ص ٣٦ سطر ٤ ، ٥

(٢) كناية عن شدة الغضب .

ذو التاج يجمع عدة وعديدا والموت يبطش بالألوف وحيدا

وجلس دارا[1] على سرير أبيه ، واشتغل الخلق بتهنئته ، وتجمعوا من الهند والصين والروم وفلسطين ومعهم الهدايا والنثار والسرايا والآثار قالوا :

دول الزمان مناحس وسعود عود ذوى فيه وأورق عود

ولم يهدأ خاطر دارا حتى أسند الكتابة إلى أخى بيرى ولم يفكر فى قول الشاعر :

إذا كنتمو للناس أهل سياسة فسوسوا كرام الناس بالرفق والبذل
وسوسوا لئام الناس بالذل يصلحوا على الذل إن الذل أصلح للنذل

فلما أصبح أخو بيرى صاحب الرأى فى ملك دارا انتقم لأخيه من أهل المعرفة والرؤساء والأمراء والإصبهبذين الذين كانوا مقربين من رستين أو كانوا أصدقاء له ، فأبلغ عنهم دارا تقارير زائفة ، وكان دارا شاباً مغروراً لاتجربة له فلم يجز العفو عن المذنبين (٣٨) ، حتى قلب عليه قلوب الناس جميعاً ، وتمكنت عداوته من ضمائرهم ، وزال الاعتماد على قوله و فعله ، وقد أهمل سنة الأولين وأقام بدعة هذا الكاتب . فلما قيل إن الإسكندر قد خرج إلى حدود المغرب أجلسوه على أبلق التهور ، وسلّموه عنان التكبر ، فلما التقى الجيشان إذا ببعض رجاله قعود والبعض الآخر يسعى للتعاهد مع العدو ، وثار به جماعة فقتلوه ؛

---

(١) هو دارا الثالث الذى يذكر فى الكتب البهلوية باسم دارى داريان والذى يسميه الإغريق داريوس كودومان . دار مستتر س ٥٤٢ ومجتبى س ٦٣ .

وندم على هذه العاقبة حين كانت الندامة على الخطأ لا تجدى[1] ، « فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها[2] » .

ولم يجعل الملك هذا الأمر سنة وهو ألا يعين من بعده ولياً لعهده ولم يضع عليه خاتمه ولكنه أعلن ما يجب اتباعه وقال : « لسنا نمنع أن ينتهوا إلى رأينا ، فإنا لم نقف على علم الغيب ، وعالم الغيب علوى ونحن فى عالم الكون والفساد ، ولم يتيسر لأهل هذا العالم الوقوف على جميع المعانى والأوجه المتضادة ، ومن الجائز أن تجىء الأيام على غير رأينا ويكون الخير عكس ذلك » .

وأما ماكتبت عن « وجوب التشاور فى هـــذا الموضوع مع الأمناء والنصحاء والأذكياء حتى يتم تعيين ولى العهد » .

فاعلم أنا أردنا أن ينفرد الملك بهذا الأمر ، وألا يستشير أحداً ،

---

(١) روى الطبرى هذه القصة فى الجزء ٢ ص ٦ (طبعة مصر) ، ص ٦٩٢ (طبعة أوربا) ، قال :

وملك دارا بن بهمن بن بشتاسب وكان ينبه بجهرازاد يعنى به كريم الطبع ... وكان معجباً بابنه دارا وأنه من حبه إياه سماه باسم نفسه وصير له الملك من بعده وأنه كان له وزير يسمى رسبين محمودا فى عقـــله وأنه شجر بينه وبين غلام تربى مع دارا الأصغر يقال له بيرى شر وعــداوة فسعى رسبين عليــه عند الملك ، فقيل إن الملك سقى بيرى شربة مات منها . واضطغن دارا على رسبين الوزير وجماعة من القواد كانوا عاونوه على بيرى ما كان منهم ... ثم ملك من بعده ابنه دارا بن دارا بن بهمن .. واستكتب أخا بيرى واستوزره لأنسه كان به وبأخيه فأفسد عليه أصحابه وحمله على قتل بعضهم فاستوحشت لذلك منه الخاصة والعامة ونفروا عنه وكان شابا غرا حيا حقودا جبارا ...

(٢) سورة ١٨ - ٤٠ .

وألا يجيز التعيين بناء على وساطة(٣٩)أومشورة أو مواجهة أومكالمة، ولكنه يكتب ثلاث نسخ بخطه ، ويسلم كل واحدة منها إلى رجل أمين يعتمد عليه ، يعطى الأولى إلى رئيس الموابذة[1] (موبدان موبد) ، والثانية إلى كبير الكتاب[2] (مهتر دبيران) ، والثالثة إلى كبير

---

(١) موبدان موبد هو رئيس الموابذة (مكويت) . والموابذة هم الطبقة العليا من رجال الدين الزردشتى ، وقد قسمت الدولة إلى مراكز دينية على رأس كل منها موبد . وأما الطبقة الدنيا من رجال الدين فهم المغان . والكتاب الإغريق واللاتين أطلقوا كلمة مجوس للدلالة على المغان والموابذة معا . وأما العرب فقد استخدموا كلمة موبد غالباً للدلالة على رجال الدين الزردشتى عامة .

ورئيس الموابذة (موبدان موبد) هو كالبابا عند النصارى. وأول ما سمع عن هذا المنصب ما جاء من أن أردشير الأول قد عين رجلا اسمه ماهداد ، ويحتمل أن يكون المنصب قديماً ولكنه لم يكن ذا خطر إلا حين أصبح دين زردشت دين الدولة الرسمى (كرستنسن ١١٨ - ١١٩)

والظاهر أن الملك هو الذى يعينه . وأهم اختصاصاته هى :

١ ـ له السلطة العليا فى المسائل الدينية . فإليه يرجع الفصل فى القضايا النظرية فى الدين والتشريع وفى المسائل العملية الخاصة بالسياسة الروحية . وهو مستشار الملك فى كل هذه الأمور . وهو الذى يعين ويعزل مرءوسيه .

٢ ـ يرأس المحكمة التى تنظر فى تظلم أحد الأفراد من الملك .

٣ ـ يرأس محكمة التفتيش وخاصة حين يحاكم مرتد عن الدين من ذوى الخطر فى الدولة .

٤ ـ يرأس الهيئة التى تفض وصايا الملك الراحل لكى تنظر فيها لتعيين ملك جديد ، وله أن ينفرد بالرأى إذا خالف رأيه رأى زميليه ، كبير الكتاب وكبير رجال الجيش .

(٢) ويسميه كارنامك « دبيران مهشت» ، ولقبه الرسمى هو «ايران دبير بذ» ، ومهشت و مهست أيضاً بمعنى الأكبر . و كان يعين أحياناً من بين حاشية الملك ، و كان يعهد إليه بمهام دبلوماسية (كرستنسن ص ١٣٤)

الإصبهبذين [1] (سپهبد سپهبدان) ، حتى إذا حان أجل الملك ،

يروح ويغدو كل يوم وليلة   وعما قريب لا يروح ولا يغدو

يحضرون كبير الموابذة ويجتمع معه الرجلان الآخران ويتشاور ثلاثتهم. ثم يفضون الأختام عن الكتب الثلاثة كى يتفقوا على من من أبناء الملك يكون له العرش . فإذا اتفق كبير الموابذة مع زميليه أذاعوا رأيهم فى الناس ، وإذا خالف كبير الموابذة رأيهما لا يعلن هذا للناس كما لا يسمعون شيئاً عما فى الوصية أو عما رأى الموبد ، بل إن هذا يخلو إلى الهرابذة ورجال الدين وأهل الزهد حيث يتعبدون ويزمزمون ومن خلفهم أهل الصلاح والفقه يقولون آمين ويرفعون أيديهم ضارعين خاضعين مبتهلين ؛ وحين يفرغون من صلاة المساء يعتمدون الأمير الذى أوحى باسمه الله تعالى إلى قلب الموبد .

وفى هذه الليلة يضعون التاج والسرير فى قاعة العرش ويجلس أصحاب المراتب حسب أقدارهم ، ويذهب الموبد ومعه الهرابذة والكبراء والعظماء إلى حيث يجلس أبناء الملك فيصطفون أمامهم ويقولون :

---

(١) ويسمى أيضاً « ايران سپاهبد » ، وقد كان رئيساً للجيش حتى أيام كسرى انو شروان الذى جعل لإيران أربعة من القادة . وكانت ولاية القائد الإيرانى أوسع من ولاية قائد الجيش بالمعنى الحديث . فقد شمل اختصاصه ثلاثة أعباء : رياسة وزارة الحرب وقيادة الجيش والقيام بمفاوضات الصلح . على أن رئيس الوزراء — بزرك فرمادار — كان يستطيع دائما التدخل فى شئون الجيش إذا كان من رجال الحرب . وكذلك الملك إذا كان محاربا بطبعه . وكثير من ملوك الساسانيين شغفوا بالحرب واشتركوا فيها . وهكذا كان قائد الجيش مقيد إلا فى عهد الملوك الذين لاصلة لهم بالحروب .

(كرستنسن ص ١٣٠) ؛ الترجمة العربية ص ١١٣ .

« لقد تشاورنا أمام الله العظيم فألهمنا الرشاد وأطلعنا على الخير »

ويصيح الموبد قائلا :

« إن الملائكة يرضون عن ملك فلان ابن فلان فيا أيها الناس أقروه أنتم أيضاً وأبشروا » (٤٠) ؛ ثم يرفع الأمير المختار ويجلسه على التخت ويضع فوق رأسه التاج ثم يمسك يده ويقول :

« أقبلت الملك من الرب العظيم عزاسمه ، على دين زردشت الذى أيده الملك گشتاسب بن لهراسب والذى أحياه أردشير بن بابك ؟ » فيقبل الأمير الملك على هذا العهد ويقول : « إن شاء الله أوفق لما فيه صلاح الرعية » .

ثم يبقى معه الخدم والحرس ، وينصرف الجمهور والجماعات إلى أعمالهم ومعاشهم .

– ١٣ –

وأما ما سألت عن « مجالس الملك ومعاركه وصلحه وحربه » : فإنى ذاكر لك أن الأرض أربعة أجزاء . فجزء هو أرض الترك ، وهو ما بين مغارب الهند حتى مشارق الروم . والجزء الثانى ما بين الروم والقبط والبربر . والجزء الثالث السواد ما بين البربر إلى الهند . والجزء الرابع هذه الأرض المنسوبة لفارس ، ولقبها بلاد الخاضعين ، وهى مابين نهربلخ إلى مقطع آذربيجان وارمينية فارس والفرات وبلاد العرب إلى عمان ومكران وإلى كابل وطخارستان ، وهذا الجزء الرابع هو صفوة الأرض ، وهو من بقية الأرض بمنزلة الرأس والسرة وسنام الجمل والبطن ، وأنا شارح لك ذلك : فأما أنه الرأس فلأن السيادة والسلطان

كانا لملوكنا منذ عهد إيرج بن أفريدون ، فقد حكموا جميع الأجزاء وكان يؤخذ بأمرهم ورأيهم فى الخلاف بين أهل الأقاليم ، وكانوا يرسلون إليهم بناتهم ويقدمون لهم الخراج والهدايا . وأما أنه السرة فلأن أرضنا تقع وسط الأراضى الأخرى (٤١) وأهلنا أكرم الخلق وأعزهم ، وقد جمع الله تبارك ملكه فينا فروسية الترك وفطنة الهند وصناعة الروم وأعطينا فى كل شىء من ذلك الزيادة على ما أعطوا ؛ وقد حرم الله الآخرين مما أعطانا من آداب الدين وخدمة الملوك ؛ وأعطينا الأوساط فى الصور والألوان والشعور ، فلا سواد غالب ولا صفرة ولا شقرة ؛ شعورنا ليست مفرطة فى الجعودة كشعر الزنوج ولا هى مفرطة فى السبوطة كشعر الترك . وأما أنه السنام فانه مع صغره بالنسبة لباقى الأرض فهو أكثر منافع وأكثر خصباً وألين عيشاً من جميع ما سواه . وأما أنه البطن فلأن الأرضين كلها تجلب إليه أطعمتها وأدويتها وعطرها فنمتع بها كما تجبى الأطعمة والأشربة إلى البطن[1] .

وجميع علوم الأرض لنا ، ولم ينسب قط لملوكنا القتل والغارة والغدر وسوء الخلق والكفر بالدين ، فإذا خالف هذا ملكان أو قاما لحماية الدين فقطعا دابر أصحاب الفساد بالغارة والقتل فانهما لم يجيزا استعباد السبايا ولم يتخذاهم أرقاء بل عمرا بهم المدن . ولم يفرض ملوكنا الضرائب على رعاياهم طمعاً فى الغنم أو حرصاً على المال أو اتباعاً للهوى . ولو اختلف ملوكنا فانهم يحتكمون للحق والشريعة والحجة . وإن ألف رجل منا يغلبون عشرين ألفاً من الأعداء أياً كانوا ، ذلك

(١) جاء هذا النص فى كتاب البلدان لابن الفقيه صفحة ١٩٧ ونسب إلى اردشير بابكان .

لأن رجالنا لا يبدأون بالعدوان والحرب والقتل (٤٢)؛ وقد سمعت عن أفراسياب التركى الذى غدر بسياوش ، فان رجالنا حاربوه مائتى مرة وغلبوه فى جميع المرات إلى أن قتل مع قتله سياوش وفتح الفرس إقليم الترك كله .

واليوم يظل الملك برعايته كل من يعترف له بالفضل والطاعة ويرسل له الخراج ، فتصان بلاده من تعرض جنده .

ثم إنه وجه عنايته كلها إلى غزو الروم وقتالهم وهو لن يستريح ما لم ينتقم لدارا من الإسكندريين [1] . ويملأ الخزائن وبيت المال ويعمر المدن التى خربها الإسكندر من بلاد فارس وذلك بأيدى سبايا أبناء الروم ، ويلزمهم بالخراج الذى كانوا يعطونه دائماً لملوكنا عن أرض القبط وسورية التى كان العبرانيون قد غلبوا عليها فسار إليهم بختنصر وقهرهم ولكنه لم يترك بها أحداً من رجاله لرداءة هوائها وفساد مائها وأمراضها المتوطنة ، فسلمها لملك الروم قانعاً بالخراج واستمر الحال على هذا حتى عهد كسرى أنوشروان .

- ١٤ -

أما ما ذكرت «عن أحوالك وأحوال من معك فى طبرستان وفد شوار گر»

فاعلم انك واحد من أهل الدنيا ، تقدر على ما يقدر عليه غيرك ، فاذا أردت أن تخالف الناس فاعلم انه لا يقدر أحد على مخالفة الناس جميعاً .

---

(١) يقصد الروم . وقد لاحظ دارمستتر ص ٥٤٩ أن الملك الرومانى الذى حاربه اردشير كان اسمه اسكندر وقد اتخذ الاسكندر المقدونى مثالا له . وقد رجع دارمستتر فى هذا إلى ، Lampride Alexandre Sévére (XLIX) .

(٤٣) وأما قولك « إن لى صلة قرابة بالملك من ناحية أردشير بن اسفنديار الذى يسمونه بهمن . »

فجوابى عليك أن أردشير الأخير أعظم قدراً عندى من أردشير الأول . وإذا بحثت فى بيت أمك وأبيك ، وهم أهلك ، عن رجل يمتاز عليك بخصلة أو خصلتين فإنك لا محالة واجده ، ولكن ليس مثلك من يفضلك بخصلة أو خصلتين ولو جاز ذلك لكان الحمار أفضل من الحصان لأن حافره أقوى ولأنه أقدر على الصبر من الحصان. وأما عن الأعمال والخصائص والفضائل فهى ما كانت معتبرة فى نظر الجمهور وليست الشاذ النادر الذى يعد لغواً . فحافظ على مروءتك واقبل نصيحتى وأسرع إلى خدمة الملك فإنى ما كنت أريد أن أجيبك بشىء يورث كراهيتك « وفيه ما فيه من العار » .

ومرة أخرى فكرت أنك تتصور أموراً غير هذا ، فإن ما تعد من أفعال وأحكام الملك مما يبعثك على العجب ، لا محل للتعجب منه أبداً ، إنما العجيب هو كيف ملك الملك وحده زمام العالم مع أنه يزدحم بالسباع الضارية ؛ وقد أتى على البلاد أربعمائة سنة امتلأت فيها بالسباع والوحوش وشياطين بنى آدم ، ممن ليس لهم دين أو أدب أو علم أو عقل أو حياء ؛ كانوا قوماً لا هم لهم غير خراب الدنيا وإفسادها ، فصارت المدن صحراوات ، وامحت العمارات ، فظل الملك أربعة عشر عاماً يعمل بالحيلة والقوة والكفاية (٤٤) حتى أجرى الماء فى الصحارى وشيد المدن وأحيا القرى حياة لم تعهدها طوال أربعة آلاف سنة من قبله ،

وقد جلب إليها أهل العمارة والسكان، وأمر بانشاء الطرق وسن القوانين ولم يمد يده طلباً لمأكل أو مشرب أو ملبس أو سفر أو مقام، ذلك ليثق الناس بكفايته، وقد عقد النية على النهوض بهذه الإصلاحات لتبقى ألف سنة من بعده لا يتطرق إليها خلل. وقد كانت عنايته بمستقبل الأيام واهتمامه بمصالح الخلق من بعده أشد مما يعمل فى عهده المبارك. كان يعنى برفاهية الشعب أكثر من عنايته بصحته. وكل من ينظر إلى أعماله فى هذه السنوات الأربع عشرة ويرى ويقدر فضله وعلمه وبيانه وسخطه ورضاه وسخاءه وحياءه ودهاءه وذكاءه يقر بأنه منذ أدار نقاش العالم هذا الفلك الفيروزى لم تر الأرض ملكاً عادلا مثله؛ وسيبقى ألف سنة باب الخير والصلاح هذا الذى فتحه للناس. ولولا ما نعرف من وقوع العالم فى الاضطراب والفتن بعد ألف سنة بسبب ترك وصيته وفتح ما أغلق وإغلاق ما فتح، لقلنا إنه عمل لهذا العالم حتى الأبد.

وإنا، وإن كنا من أهل الفناء والعدم(٤٥)، فإن الحكمة تقتضينا أن نعمل للبقاء وأن نسعى للأبد، فعليك أن تكون من أهل ذلك ولا تعملن للفناء فيسرع إليك وإلى قومك، فقد قال الحكماء: «إن الفناء مكتنف عن أن يعان وأنت محتاج إلى أن تعين نفسك وقومك بما يزينك فى دار الفناء وينفعك فى دار البقاء». وكن على يقين من أن كل من يترك الطلب ظهرياً ويتوكل على القضاء والقدر يحتقر شأن نفسه، وأن كل من يسعى دواماً سعياً ولا يؤمن بالقضاء والقدر فهو جاهل مغرور؛ إنما العاقل من التزم الوسط بين الطلب والقدر ولم يقنع

بواحد منهما ، ذلك أن القدر والطلب كحقيبتى مسافر على ظهر دابة ، إذا ثقلت إحداهما خفت الأخرى وسقط المتاع وكسر ظهر الدابة واغتم المسافر وفاته المقصود ؛ وإذا تساوت الحقيبتان فإن المسافر لا يضيق صدره والدابة تستريح ويتم المقصود .

حكاية

كان فى قديم الأيام ملك اسمه جهنل ، يدين بالقدر وله فيه غلو وتعصب وكان يقول :

ولن يمحو الإنسان ما خط حكمه وما القلم المشاق فى اللوح رقشا

(٤٦) وقد أنكر أهل زمانه ورجال عهده مذهبه وطريقته ، حتى اجترأ عليه أحد إخوته ونازعه الملك وأخرجه وأولاده من البلاد ؛ فالتحق الملك ببلاط قيرانشاه وقضى أيامه ذليلا فى خدمته ؛ كان يعتمد على القضاء والقدر فلم يسع لطلب الملك وبالغ فى ذلك حتى عجز عن كسب القوت . فتقدم إليه أبناؤه وقالوا « لقد سيرنا اعتقادك فى القدر إلى أن لا يكون لنا قدْر ، وقد أصبحت لذل نفسك وخساسة طبعك وتشاؤمك كالبعير الذى ينقاد ، لضعف قلبه ، إلى طفل فى العاشرة ، يضع الحشائش على ظهره والمحار فى أنفه ويدور به فى السوق ولو كان لهذا البعير قلب عصفور لما استطاع مثل هذا الطفل إذلاله » ثم إنهم قصوا على أبيهم القصة التى يضرب بها المثل عند أهل العلم ، قالوا : كان فى قرية على حافة الصحراء أعمى ليس له قائد يهديه ، ولم ييسر له الرزق فى أى مكان ، وكان بجانبه مقعد ، وهو مثله فقير عاجز ، وكان هناك زاهد يحضر إليهما كل يوم ما يقتاتان به ، وذات

يوم ظلا ينتظران ، وكان الموت قد عاجل الزاهد وقت الأصيل فارتحل ، ومضى يومان وقد أنهك الجوع العاجزين ، فقررا أن يحمل الأعمى المقعد فوق كتفه وأن يكون المقعد دليله ، وأن يطوفا بالمنازل والسوق ، وأعدا على هذا النحو عيشهما واستراحا إذ بلغا ما يبغيان .

فقال جهنل لأولاده أنتم على الحق ، وقد كان فى الذى قلتم إدبارى وسوء حظى . ثم إنهم اتفقوا وأخذوا يتحملون المشاق فى طلب الملك ، فبلغوا مرادهم لاجتهادهم .

(٤٧)وأعجز الناس يلغى السعى متكلا	على الذى تفعل الأقدار والقسم
لو كان لم يغن رأى لم تكن فكر	أو كان لم يجد سعى لم يكن قدم

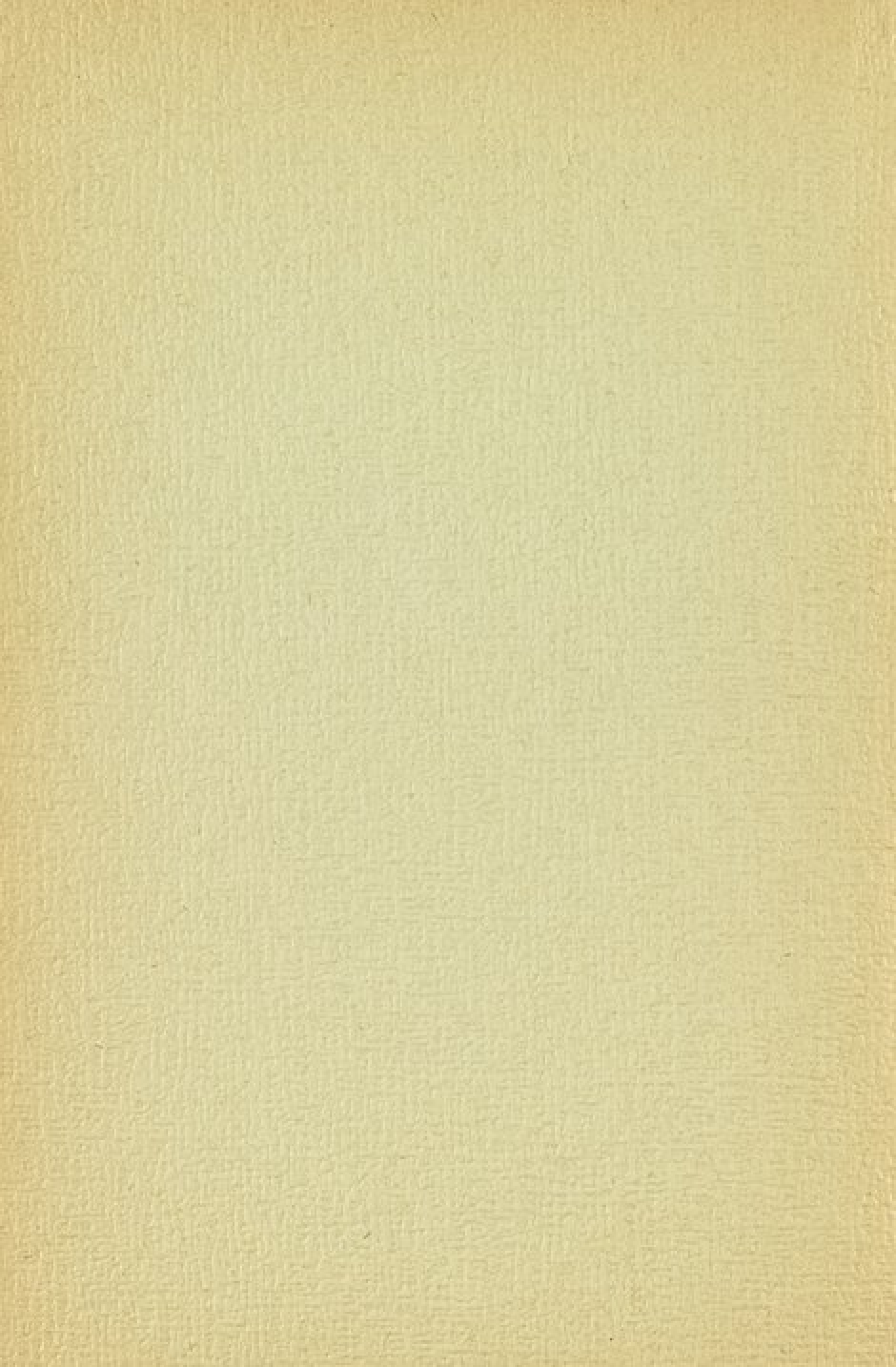
فليعذرنى ملك طبرستان وابن ملكها على ما اجترأت به ، فإنى لا أرى إغفال شىء من النصيحة ، لما لوالدك من حق على ولعظمة أسرتك ، ولم أسلك معك طريق النفاق والتملق والرياء والترفق .

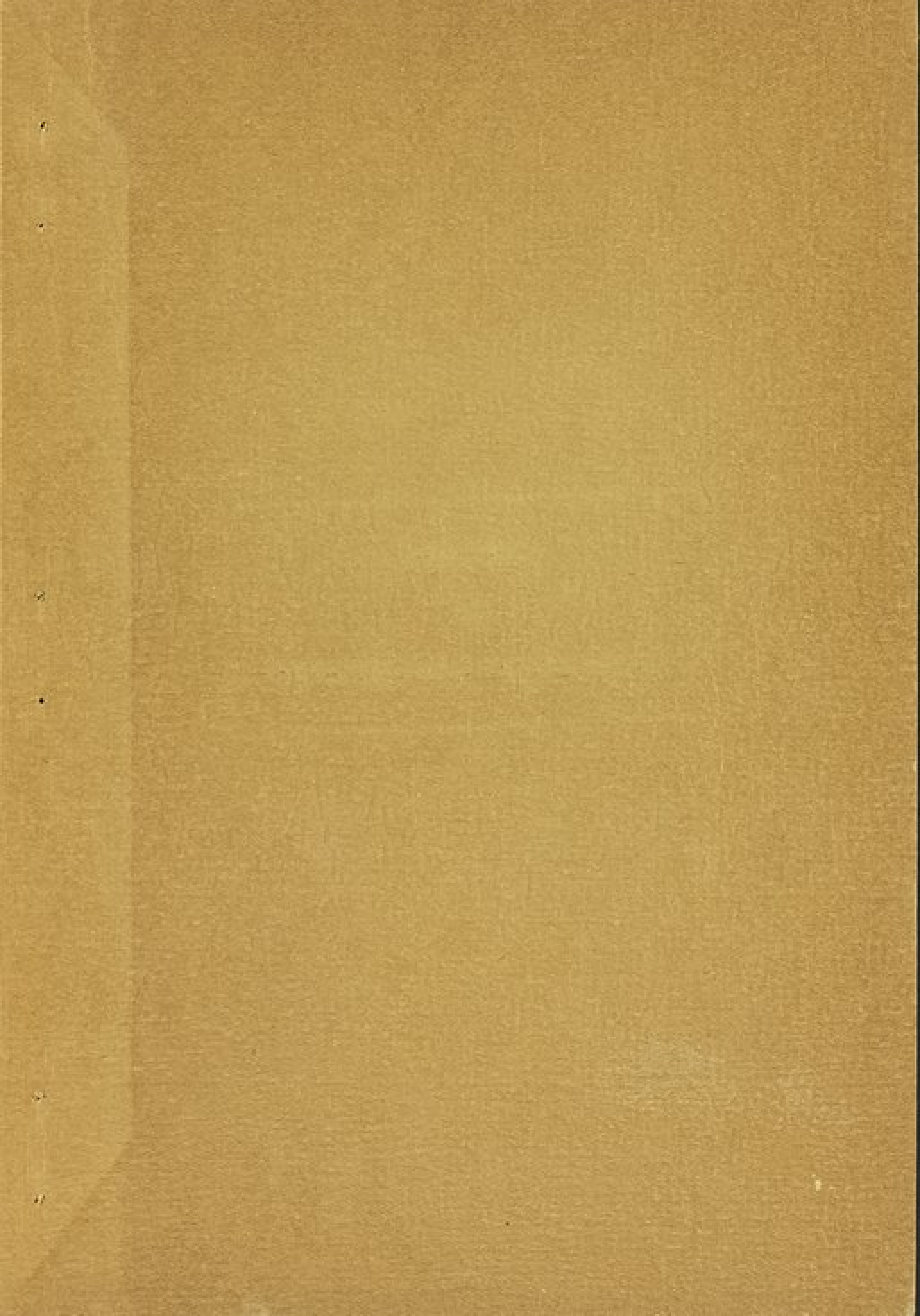
ولست بزوار الرجال تملقا	وركنى عن تلك الدناءة أزور
يثبطنى عن موقف الذل همة	إلى جنبها خد السماك معفر

هنا تنتهى ترجمة ابن المقفع ، ولكنى قرأت فى الكتب أنه حين قرأ جشنسف ، ملك طبرستان ، كتاب تنسر ، سار إلى خدمة أردشير بن بابك ، وسلم التخت والتاج ، فبالغ أردشير فى تقريبه

والترحيب به ؛ ولما عزم على غزو الروم ، بعد مدة ، أعاده إلى طبرستان وملكه إياها مع سائر بلاد فدشوارگر ، وبقى ملك طبرستان فى أسرته حتى عهد كسرى پرويز . وحين اعتلى قباد أريكة الملك أغار الترك على خراسان وأطراف طبرستان غارات عدة ، فتشاور قباد مع الموابذة فرأوا بعد الاستخارة وتدبير الرأى أن يرسل الملك أكبر أبنائه ، كيوس ، إلى هناك ، فإن طالعه موافق طالع هذه الولاية . وقصته تأتى فى مناسبتها .

فهرست الموضوعات






JC393
.N363
1950

Princeton University Library
32101 100050143